الأم في أدب غسان كنفاني





أدهم شرقاوي

قس بن ساعدة



الطبعة الأولى

صورة الأمّ في أدب غسان كنفاني

«أمّ سعد أنموذجاً»

أدهم شرقاوي

قسّ بن ساعدة

٢٠١٤

تدقيق ومراجعة

ماجد مقبل

@MajedAbdr



صورة الأمّ في أدب غسان كنفاني

«أم سعد أنموذجاً»

- صورة الأمّ في أدب غسان كنفاني «أمّ سعد أنموذجاً»
- أدهم شرقاوي / قسّ بن ساعدة
- دار كلمات للنشر والتوزيع
- الطبعة الأولى ٢٠١٤

دولة الكويت / محافظة العاصمة - القبلة - شارع عبدالله المبارك ، برج علي ، الدور الثامن ، مكتب ١١

ج : +٩٦٥٩٩١١٤٠٦٠

بريد الإلكتروني : Dar_Kalemat@hotmail.com

موقع إلكتروني : www.DarKalemat.com

للتواصل مع المؤلف : @adhamsharkawi

الغلاف : العنود الحربي : alanoud1992@hotmail.com

رقم الإيداع : ٢٠١٤/٢٤٧

ISBN: 978-99966-45-04-4 : ردمك

الإهداء

ولأنّ الحديث عن الأمّهات

أجدها فرصة سانحة لأقول لكِ

ما عجزتُ عن قوله على مدى عمري :

يتيمٌ كلّ طفلٍ لستِ أمّه

إلى فاطمة

الأم والصديقة والحبيبة عربون محبّة وعرفان

المقدّمة

الأمومة تلكَ العاطفة الفيّاضة التي حيّرت النساء قبل الرّجال ، وأحالت المرأة من كائنٍ تُرابيّ إلى رمزٍ مقدّس ، تغنّى به الشّعراء ، وكتبَ عنه الأدباء منذ فجر الحرف !

قالوا في الأم كثيراً ، وفي كل مرّةٍ رجعوا من القول خائبين ، فقد كانت الكلماتُ تصغُر والأم تكبُر . وما أنصفوها إلا يوم قالوا : «الدنيا أم» .

أهمية هذه الدراسة ليست لأنّها عن الأم ، فدراسة متواضعة لن تزيدَ الأم شرفاً ، وعدم وجود هذه الدراسة لن ينزل الأمّ من عليائها ، ولكن أهميّتها تكمن في أنها محاولة لفهم طبيعة الأمّ في أدب غسان كنفاني .

نبحث في هذه الدّراسة صورة الأم في أدب الرّوائيّ غسان كنفاني ، وقد اخترنا «أم سعد» أنموذجاً لتحديد إطار التّصوّر الكنفانيّ للأم . فغسّان كنفاني على امتداد رواياته قدّم صوراً مختلفة للأم ، ولكن «أمّ سعد» تبقى الأنموذج الفريد من الأمهات ، ليس لأنّ الرّواية باسمها ، ولا لأنّها شخصيّة حقيقيّة عرفها الكاتبُ طفلاً في فلسطين ، ورجلاً في مُخيّمات

اللجوء في لبنان ، بل لأنّها تجمّعٌ كثيفٌ لمجموعة أمّهات في أمّ واحدة ، فهي الأم الثوريّة والعاملة والمربيّة والعاطفيّة .

وهي التي تحدّث عنها غسّان كنفاني في أكثر من عمل روائيّ إلى أنْ أفرد لها -أخيراً- عملاً روائيّا باسمها «أمّ سعد» .

«تُعد شخصيّة أم سعد من أبرز الشخصيات النسائيّة ، وأكثرها قدرة وتعبيراً عن الدور النضالي للأم الفلسطينيّة ، التي عاشتْ زمن الكبوة والعجز والوجع ، في مخيّمات الأسى واللجوء ، وشهدت انحسار مشاعر الإحباط التي سكنتْ نفوس اللاجئين على مدى عشرين سنة بفضل بزوغ فجر السّلاح من جهة ، وبفضلها هي لأنّها بحمل أعباء أسرتها أتاحت لأبنائها أن ينصرفوا للعمل العسكريّ»[١] .

لهذا وجدنا «أم سعد» الرواية والشّخص مجالاً خصباً يُتيح لنا استقراء صورة الأم الكنفانيّة وإعادة هيكلة تلك الصّور وتبيان دورها في أكثر من مجال من مجالات الحياة .

وقد «درَجَ الباحثون والدّارسون في أدب غسّان كنفاني على اعتباره أديباً سياسياً ، اكتسب قيمته من القضيّة التي

---

(١) حسّان رشاد الشّامي . المرأة في الرّواية الفلسطينيّة ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، ١٩٩٨ ، ص ٥٠ .

يُمثّلها ، ولو أنّ مُعظمهم اعتبره أديباً وسياسياً ومناضلاً في وقتٍ واحد»[١] .

والشائع أنّ أدب غسان كنفانيّ هو أدب ذكوريّ بامتياز ، فغسان كنفاني عاش لقضيّة ومات لأجلها ، تلك القضيّة أخذته من كلّ شيء وهو القائل «خلقت أكتاف الرجال لحمل البنادق» وقد أشار كثر إلى تقصير كنفاني في تناول المرأة في رواياته ، وهذا ما رأته الروائيّة المصريّة رضوى عاشور في كتابها «الطريق إلى الخيمة الأخرى» .

«إذا أخذنا كتابات غسّان كنفاني ككل فسوف نجد فيها صورة المرأة قليلة للغاية ، إنّه يعرف الرّجال أكثر ، وبالتّالي فهو يكتب عنهم ، ومن البديهيّ والمُسّلم به أنّ من حقّ كلّ كاتب أن يكتب عمّا يعرفه أكثر»[٢] .

وتعود رضوى عاشور للحديث عمّا تراه قصوراً كنفانيّاً في تناول المرأة وقضاياها .

«أتحدّث عن قصور في تقديم صورة المرأة الثوريّة ، وقد يُدافع

---

(١) احسان عبّاس ، فضل النّقيب ، الياس خوري . غسّان كنفاني : انساناً وأديباً ومناضلاً ، منشورات الاتحاد العام للكتّاب والصحافيين الفلسطينيين ، بيروت ، ١٩٧٤ ، ، ص ٥٣

(٢) رضوى عاشور . الطريق إلى الخيمة الأخرى ، دار الآداب ، طبعة أولى ، بيروت ، ١٩٧٧ ، ص ٤٦ ،

البعض عن غسّان كنفاني فيقول إنّه كان يعكس واقعاً بعينه ، والثّورة الفلسطينيّة رغم العطاء الكبير الذي قدّمته المرأة في صفوفها ، سواء في الكفاح المُسلّح ، أو المجال السّياسيّ داخل فلسطين المحتلّة ، تظلّ ثورة ذات توجّه ذكوريّ ، الفاعل الأساسيّ فيها هو الفدائيّ الرّجل»[1] .

وإلى هذا تذهب الكاتبة والباحثة فيحاء عبد الهادي في كتابها «وعد الغد» إذ تقول :

«نتحدّث عن الفلسطينيّة التي لا تُبقي أسرار الدّور الطليعيّ ، نتطلّع إلى تنظيم ملايين النّساء في صفوف الثّورة ، وهذا ما لم يُجسّده غسّان»[2] .

وعلى ذات الدرب يسير الدّارس والباحث حسين مناصرة :

«لا نتجاوز الحقيقة إذا قلنا إنّ حركيّة المرأة الفلسطينيّة في روايات غسّان كنفاني ، بوصفها حركيّة ذاتيّة تهتم بقضايا المرأة ، هي حركيّة مُهمّشة عُموماً»[3]

ولكنّنا نرى في هذا إجحافاً بحق غسان كنفاني وقُصوراً

---

(١) رضوى عاشور . الطريق إلى الخيمة الأخرى ، دار الآداب ، طبعة أولى ، بيروت ، ١٩٧٧ ، ص ٤٧ ،

(٢) فيحاء عبد الهادي . وعد الغد ، دار الكرمل للنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى ، عمّان ، ١٩٨٧ ، ، ص ٣٣

(٣) فيحاء عبد الهادي . م س ، عمّان ، ١٩٨٧ ، ص ٥٣ .

في استقراء صورة المرأة عموماً في أدبه والأم بشكل خاص .

وهذا ما سنحاول إثباته في هذه الدراسة .

فهل استطاع غسان كنفاني من خلال أم سعد تقديم شخصيّة أمومية متكاملة تُلخّص نظرته إلى الأم ؟

وهل استطاع كنفاني المتهم بتقديم أدب ذكوري خالص من رد التهمة عن نفسه والإثبات من خلال «أم سعد» الرواية والمرأة وتقديم نموذج نسوي متكامل ؟

تهدفُ هذه الدّراسة - كما أشرتُ - لإنصاف غسّان كنفاني بعد كل ما اتهم به من تقديم أدبٍ ذكوريّ على حساب الجانب الأنثويّ .

فنحن نرى أنّ غسّان كنفاني ، وإن كان صاحب قضية ، فإن المرأة عموماً ، والأم خصوصاً ، لم تكن حادثاً عرضيًا في حياته ، وفي أدبه . فكنفاني - برأينا - أدباً طال كل مناحي الحياة ، ومكوناته ، بما في ذلك الأم/المرأة .

وهذا ما سنحاول إثباته .

لهذا فأهميّة هذه الدّراسة ترتبط بما أثير عن كنفاني قديما ، فهي محاولة رسم مشهد متكامل ، وتقديم فهم أعمق لأدب غسّان . فكل من رأى في أدب غسّان أدبا ذكوريّا ، لم يكن يهدف للإساءة له ، ولم يكن ينطلق من تصوّر مسبق ، بل نقل فهمه للنّص الكنفانيّ وإحساسه به ، ولطالما كانت الكلمات حمّالات أوجه !

لهذا بالضبط أتت هذه الدّراسة .

أتت لتقديم وجه جديد في فهم أدب غسان ، وتحديدا تصوّره عن الأم .

فهل قدّم غسّان كنفاني رؤياه في الأم حقا ؟ أم أن قضيته شغلته عنها ؟

هذا ما سنحاول الإجابة عنه في هذا البحث .

أما السبب الذاتيّ لاختيار هذا الموضوع ، فهو إعجابي الشديد بغسان كنفاني راوئيّاً ، عاش لقضية ومات لأجلها ، اغتيالا على يد الموساد الإسرائيليّ . إن فكرة أن يدفع رجل حياته ثمنا لما يؤمن به ، فكرة تستحق أن يقف المرء إجلالا لها .

فغسان كنفاني الضيف الخفيف على الحياة ، الذي لم يقضِ فيها غير ستةٍ وثلاثين سنة ، المريض بمرض السكريّ ، المحكوم بحقن نفسه يوميّا بإبر الأنسولين كي يعيش ، استطاع أن ينسى مرضه الشخصيّ ، وينشغل «بمرض» شعب ، ويحقنه كل يوم بإبر الأمل ، فحمل البندقية والقلم ، وكتب للبؤس في المخيمات ، ولسواعد الثّوار على الجبهات .

هذا الرجل ـبرأيي- يستحقّ أكثر من دراسة ، يستحقّ أن تُرفع له القبّعة احتراما .

أدبُ كنفاني بشكل عام ، أدب لصيق بالمجتمع ، ممعن في التقاط إشاراته ، مبدع في تصوير أحداثه ، وشخصياته . والأم كما تصورها غسان كنفاني ، هي حجر الأساس في المجتمع ،

هي حارسه الأمين ، ووقود قضيته العادلة .

لهذا ، سنعتمدُ في دراستنا هذه على المنهج الاجتماعيّ ، لا سيّما على نظريّة بيير زيما والسيمائية الخطابيّة الاجتماعية والنفسيّة .

فالمنهج الاجتماعي الذي تعود جذوره إلى هيغل ، والذي تطور مع عدد من النقاد البارزين أمثال كارل ماركس ، ولوكاتش ، وغولدمان ، يُعنى بقراءة النصوص الأدبية وتحليلها من منظور مدى تعبيرها عن الوسط الاجتماعي الذي أنشأها ، وهو يتعامل مع الظاهرة الأدبية ليس بوصفها ظاهرة مستقلة بذاتها وخصوصيتها ومفرداتها الإبداعية ، وإنما يرى النّصوصَ الأدبية وسائر الفنون غير مستقلة عن شروط إنتاجها الاجتماعي وتحمل داخلها آثار المجتمع والجماعة والمؤسسة الأدبية التي أنتجتها .

وبالعودة إلى زيما فهو يرى «أن ضعف البنيوية التكوينية يكمن في إهمالها المستوى اللسانيّ : المعجمي والدلالي والنحوي والسردي ويأخذ على غولدمان اعتباره النص الروائي بنية مدلولات تحيل مباشرة إلى الواقع الاجتماعي»[١] .

ويسأل زيما : كيف تتجسد القضايا الاجتماعية ، والمصالح

---

(١) نبيل أيّوب . نصّ القارئ المُختلف ، مكتبة لبنان ناشرون ، بيروت ، ٢٠١١ ، ص ٩٧ .

الجماعية في المستويات المعجمية ، والدلاليّة ، والتركيبية ، أو السردية للنص الروائي الأدبي ، ولا سيّما القصصي ؟

ويسعى من خلال تساؤله إلى تقديم المستويات النصيّة كبنى لغوية واجتماعية في آن .

كل هذا يجعل من المنهج الاجتماعي ، ومن نظرية بيير زيما تحديدا الأداة المثلى لتقديم دراسة مقنعة وشاملة للموضوع قيد الدرس .

وإن كان للمنهج الاجتماعي حصة الأسد من هذه الدراسة فهذا لا يمنع من أن نتكئ أحياناً على عصا المنهج النفسيّ ، نهشُّ بها على مقاطع الرواية ، لنستخرج الخفايا النفسية لأم سعد ، خصوصاً عندما ندرس «حب التّملك» ، أو طغيان الجانب الأموميّ على الجانب الأنثوي .

وقد قسّمت هذا البحث إلى مُقدّمة ، وثلاثة فصول ، وخاتمة . ويُقسم كل فصل إلى ثلاثة مباحث أُلخّصها على الشكل الآتي :

المقدّمة:

أمهّد فيها للموضوع ، وأعلل سبب اختياره ، عارضاً الإشكاليّة ، والمنهج ، وطرق سير البحث .

الفصل الأول:

أدرس فيه تجليّات الأمّ الثّوريّة في شخصيّة أمّ سعد .

وقد قسَّمتُ هذا الفصل إلى ثلاثة مباحث ، أدرسُ في المبحث الأوّل مظاهر الجرأة والفدائيّة عند الأمّ الثورية .

وفي المبحث الثّاني أدرس التضحية في سبيل القضايا التي تؤمن بها الأم الثوريّة .

وفي المبحث الثّالث أدرسُ مظاهر التّعلق بالأرض عند الأمّ الثّوريّة .

الفصل الثاني:

أدرس فيه الأم العاملة ، أو ما يمكن تسميته : رحلة البحث عن رغيف !

وقد قسمت هذا الفصل إلى ثلاثة مباحث ، أدرس في المبحث الأول ملامح المعاناة عند الأمّ العاملة .

وفي المبحث الثاني أدرس الحس الإنساني عند الأم العاملة كما تجلت في شخصية أم سعد .

وفي المبحث الثالث أدرس الأم العاملة والحياة الزّوجيّة .

الفصل الثالث:

أدرس فيه تجليات الأم العاطفية في شخصية أم سعد

وقد قسمت هذا الفصل إلى ثلاثة مباحث ، أدرس في المبحث الأول حب تملّك الأولاد كما تجلّت في شخصيّة أم سعد .

وفي المبحث الثاني أدرس طغيان الجانب الأمومي على الجانب الأنثوي في شخصية أم سعد .

وفي المبحث الثالث أدرس مظاهر الصداقة بين الأم والأولاد كما مارستها أم سعد .

خاتمة:

تلخيص لنتائج الدراسة

استنتاجات وتوصيات .

وقبل خوض غمار البحث لا بدّ من الإشارة إلى أنّه دراسة متواضعة عن الأمّ كما اعتقدتُ أنّها تجلّت في أدب غسّان كنفاني ، وفي رواية أمّ سعد تحديداً ، فهي دراسة لا تُلغي ما بعدها ، ولا تستغني عمّا قبلها ، فإن وُفّقتُ فيها فلّله الفضل ، وإن لم أوفّق فيكفني شرفُ المحاولة .

الفصل الأوّل:

الأم الثّوريّة

مقدمة الفصل

المبحث الأول: الجرأة والفدائيّة

المبحث الثاني: التّضحية في سبيل قضيّة تؤمن بها

المبحث الثالث: التّعلق بالأرض

خاتمة الفصل

الفصل الأوّل:
الأم الثوريّة

مقدّمة الفصل:

مذ خطّ الإنسان حروفه الأولى محاولاً فيها التّعبير عن عواطفه ومخاوفه، وواضعاً إجابات بسيطة لأسئلة الحياة المُعقّدة، كان يُعبّر - من حيثُ لا يدري - عن ارتباط الأدب بالحياة ارتباط الجنين بمشيمة أمّه.

«لا يستطيع أحد إلا أن يُسلِّم بأن الظّاهرة الروائيّة على علاقة وثيقة بالمناخ الاجتماعيّ والسّياسيّ، ومجمل التغيرات الخطيرة التي طرأت على الوطن العربيّ بعد هزيمة حزيران، إذ اندحرتْ قِيمٌ ومفاهيم كثيرة وبدأت أخرى، تراجع فكر وبدأ فكر يتململ، سقطت أوراق طبقة حالمة وبدأت طلائع طبقة جديدة بالتّحرك»[1].

لهذا لا يمكن الحديث عن شخصيّة أم سعدٍ دون استحضار الثورة، فهي الأنموذج الكنفانيّ للمرأة التي تفوح منها رائحة

---

(١) فيصل دراج. البطل في التاريخ، شؤون فلسطينيّة، عدد ١٣، أيلول، ١٩٧٢، ص ١٢١.

البارود أكثر مما تفوح منها رائحة المطبخ!

«وإنّ رواية أم سعد لا يُمكن أن تُرى دون وجود المقاومة ، فهي التعبير الأدبيّ عن ظاهرة حركة الشعب الفلسطينيّ التي ولّدتها شروط اجتماعية ، وظروف تاريخيّة»[1] .

لذا ارتأينا أن يكون الفصل الأوّل في دراستنا هذه عن ملامح الأم الثوريّة في شخصيّة «أم سعد» .

وقد قسّمنا هذا الفصل إلى ثلاثة مباحث هي :

المبحث الأول : الجرأة والفدائيّة

المبحث الثاني : التّضحية في سبيل قضيّة تؤمن بها

المبحث الثالث : التّعلق بالأرض .

---

(١) شكري عزيز ماضي . انعكاس هزيمة حزيران على الرواية العربيّة ، المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٧٨ ، ص ٢٤ .

المبحث الأوّل:
الجرأة والفدائيّة

كانت الثّورة هي المظلة الكبيرة التي يكتب تحتها غسّان كنفاني، فنساء رواياته إمّا ثوريّات، أو على علاقة ما بالثّورة، ورجال رواياته لا يخرجون عن هذا الإطار، ثوّار وخونة، لا وجود في أدب غسّان للحياد والحياديين!

«كان غسّان كنفاني متفرّداً في الأدب الثوريّ القادر على اختراق الواقع اليوميّ المُعاش باندفاع محموم، فجاء إبداعه يشِفُّ عن موقفٍ ورؤيةٍ وقدرةٍ على الحوار. حوار اللغة وحوار الواقع، أي حوار الأدب وحوار السِّياسة، فكلُّ عملٍ أدبيٍّ لغسّان كنفاني لم يكن يحمل قولاً نضاليّا ثوريّا في شكلٍ فنيّ مقبول، بل كان يحمل اقتراحاً فنيّاً جديداً على صعيد التّشكيل، والبنية، والتركيب، وطرائق السّرد»[1]

ولأنه لا يمكن للمرء أن يكون ثوريّاً دون أن يكون جريئاً- فالثّورة حرفة الشّجعان في كل عصر، مهنة الفدائيين الذين يحملون أرواحهم على أكفّهم، وهم على استعداد دائم لبذلها

(١) محمد دكروب. الآداب، العدد ٧، تموز، ١٩٩٢، ص ١٤١٢.

في سبيل ما ثاروا منه وله وعليه- سنحاول أن نتقصّى ملامح تلك المرأة الجريئة والثوريّة من بين ثنايا الكلام .

عَرَفَتْ أمُّ سعدٍ باكراً أنّ الحقوق لا تُعطى بل تُنتزع ، وأنّ فُوّهات البنادق أكثر بلاغة من أفواه الرّجال ، ولأنّ السَّيف أصدق إنباءً من الكُتب ، كانت تحلم بتلك اللحظة التي تسكتُ فيها المنابر وتحكي البنادق .

«لقد علَّمتني أمُّ سعدٍ كثيراً ، وأكاد أقول إن كلّ حرفٍ جاء في السُّطور التالية إنما هو مقتضب من بين شفتيها اللتين ظلتا فلسطينيتين رغم كل شيء ، ومن كفَّيها الصلبتين اللتين ظلتا تنتظران السَّلاح عشرين سنة»[1]

حين نتحدّث عن الجرأة في شخصيّة امرأة ريفيّة أميّة ، قد يتبادر إلى الذهن أنّها تلك الجرأة التي تصل حدّ الوقاحة ، غير أنّ أمَّ سعدٍ وإن كانت لا تجامل أحداً على حساب ما تراه حقاً «قالت زوجتي : لقد اختفتْ أمُّ سعدٍ منذ تفجّر القتال . وها هي تعود وكأنّما على ايقاع الهزيمة . . . لماذا تجيء وكأنها تريد أن تبصق في وجوهنا؟»[2]

إلاّ أنّ جرأتها كانت جرأة واعية ، تفهم الأحداث

---

(١) غسّان كنفاني . الآثار الكاملة ، الرّوايات ، مؤسسة الأبحاث العربيّة ، بيروت ، ١٩٩٩ ، ص ٢٤٢ .

(٢) المصدر نفسه : ص ٢٤٦ .

وتداعـيـاتـهـا ، وتعـرف الواقع وأبعـاده و« لو عـدنا إلى الظّروف التاريخيّة والاجتماعية التي عاشتها أمُّ سعدٍ نرى استيقاظها من حالة الجهل إلى حالة الوعي الثوريّ أمر ممكن حدوثه ولو أنّه استثنائي في مثل ثقافتها»[1]

وحين زجّوا بسعدٍ في غياهب السّجن ، كانت تعرف أنّ السّجن الماديّ لسعدٍ لا يختلف عن السّجن المعنوي الذي يعيشه الجميع ، وإنّ السّجن وإن أحال سعداً من ثائر إلى مُكبّل فقد أعاده لنقطة البداية شخصاً كأولئك الطلقاء الذين لا يفعلون شيئاً . لهذا قالت لغسّان : «طيّب ، أنتَ غير محبوس فماذا تفعل»[2]

القضبان لم تكن تؤرّقها ، لأنها كانت تعرف بقرارة نفسها أنّ كل شيء خارج الحبس إنما هو حبس من نوع آخر !

«أتحسبُ أنّنا لا نعيشُ في الحبس؟ ماذا نفعل نحن في المخيم غير التّمشي داخل ذلك السجن العجيب؟ الحبوس أنواع يا ابن العم! أنواع! المخيم حبس ، وبيتك حبس ، والجريدة حبس ، والرّاديو حبس ، الباص والشّارع وعيون الناس ، أعمارنا

---

(١) نجمة خليل أحمد . النموذج الإنسانيّ في أدب غسّان كنفاني ، بيسان للنّشر والتوزيع والإعلام ، بيروت ، ١٩٩٩ ، ص ٤٣ .

(٢) غسّان كنفاني . الآثار الكاملة ، الرّوايات ، مؤسسة الأبحاث العربيّة ، بيروت ، ١٩٩٩ ، ص ٢٥٥ .

حبس، والعشرون سنة الماضية حبس... تتكلم أنتَ عن المحبوس؟ طول عمرك محبوس!»[1]

وحين كان العمل المسلّح بعد هزيمة حزيران جُرما يُعاقب عليه القانون، لم تكن أمّ سعد تحفل بهذا القانون ولا تلقي له بالا، وكانت تملك من الجرأة ما يكفي لتعترف أنّ ابنها أضحى مقاتلا، وكانت تفخر بذلك أمام من تعرف ومن لا تعرف «قلتُ للمرأة التي جلست إلى جانبي في الباص أن ولدي أضحى مقاتلا... قلتُ لها أنني أحبّه وسأشتاق له، ولكنّه جاء ابن أمّه»[2]

لهذا «تُعدُّ شخصيّة أمّ سعد من أبرز الشّخصيات النسائيّة، وأكثرها قدرة وتعبيراً عن الدور النضالي للأم الفلسطينيّة، التي عاشت زمن الكبوة والعجز والوجع في مخيّمات الأسى واللجوء، وشهدت انحسار مشاعر الإحباط التي سكنت نفوس اللاجئين على مدى عشرين سنة، بفضل بزوغ فجر السّلاح من جهة، وبفضلها هي لأنها حملت أعباء أسرتها وأتاحت لأبنائها أن ينخرطوا في العمل العسكريّ»[3]

---

(١) المصدر نفسه: ص ٢٥٥

(٢) المصدر نفسه: ص ٢٦٤

(٣) حسّان رشاد الشّامي. المرأة في الرّواية الفلسطينيّة، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٩٨،، ص ٥٠.

وأمُّ سعدٍ لم يكن يكفيها ذلك الدّور التقليديّ الذي تُؤديه الأمهات في الثورات ، وهو أن يكُنّ قاعدات خلفيّة للمحاربين ، أو يُحوّلن بيوتهنّ حلقات للتعبئة والتثقيف . لقد بلغ إيمانها بقضيّتها ذروته ، وتمنّت لو لم يكن لديها ما تحلم به النسّاء ، وما يولد معهنّ بالفطرة ، وهو أن يكُنّ أمهاتٍ . كانت تريد أن تكون في الصّفّ الأوّل من المعركة ، وكانت ترى أنّ الأولاد قيدٌ يمنعها من ممارسة دور رياديّ .

«أتدري؟ إنّ الأطفال ذل! لو لم يكن لديّ هذان الطّفلان للحقتُ به . لسكنتُ معه هناك . خيام؟ خيمة عن خيمة تفرق!»(١)

والشّيءُ بالشّيء يُذكر ، وجدنا عدداً من الدّارسين يُحمّلون هذه الجملة «خيمة عن خيمة تفرق» فوق ما تحتمل ، ففي معرض حديثها عن هذه الجملة ترى رضوى عاشور أنّها تعبير عن الطبقيّة عند غسّان كنفاني «يلتزم غسّان كنفاني في روايته بالعديد من سمات الرواية الاشتراكيّة كما أصّلها النّقاد والكتاب الاشتراكيّون : الانحياز للإنسان الكادح ، التركيز على

---

(١) غسّان كنفاني . الآثار الكاملة ، الرّوايات ، مؤسسة الأبحاث العربيّة ، بيروت ، ١٩٩٩ ، ص ٢٦٤ .

دياليكتيّة الحركة ، التفاؤل ، التعليميّة»[١]

وحين يُناقش أحمد أبو مطر هذه الجملة ، يذهب إلى ما ذهبت إليه رضوى عاشور من قبل «اتضح الموقف الطّبقيّ عند غسّان بشكل واضح في رواية أم سعد ، وقد كان ذلك مرافقا لتطوّره السّياسيّ نتيجة ما طرأ على فكره من التزام كامل بأيديولوجيّة الطّبقة العاملة التي أصبحت العمود الفقريّ للثّورة»[٢]

وعلى ذات الدّرب- وفي معرض الحديث عن ذات الجملة- يسير إبراهيم خليل فيرى «إنّ رواية أمّ سعد رواية تستطيع أن تقول عنها أنّها رواية في أدب الطّبقات الشّعبيّة ، عمالا وفلاحين وهذا هو الأدب الواقعيّ شكلا ومضمونا»[٣]

وإن كنّا نوافق الدّارسين على أن رواية أمّ سعد هي رواية اشتراكية بامتياز ، وأنّها تدور في فلك الطبقة الفقيرة والمسحوقة ، التي تُعاني ألم اللجوء ، وتعيش بؤس المخيّمات ، إلا

---

(١) رضوى عاشور . الطريق إلى الخيمة الأخرى ، دار الآداب ، طبعة أولى ، بيروت ، ١٩٧٧ ، ص ٣٢ .

(٢) أحمد أبو مطر . الرّواية في الأدب الفلسطينيّ ، المؤسسة العربيّة للدراسات والنّشر ، طبعة أولى ، بيروت ، ١٩٨٠ ، ص ٢٧٨ .

(٣) ابراهيم خليل . في القصّة والرّواية الفلسطينيّة ، دار ابن رشد للنشر والتوزيع ، طبعة أولى ، عمّان ، ١٩٨٤ ، ص ١٥٣ .

أننا نرى أن الحديث عن الطبقيّة عند غسّان في جملة «خيمة عن خيمة تفرق» هي تحميل للكلام فوق ما يحتمل لسببين :

الأول : أنّ النّكبة واللجوء أحالا الفلسطينيين بشكل عام إلى طبقة واحدة فقيرة ومسحوقة ، فتساوى الجميع في البؤس تساوي أسنان المشط في الطول . وإنّ المجتمع الفلسطينيّ قبل النكبة كان فيه للطبقية متّسع ، ولكن إحدى نتائج النكبة أنها أحالت الجميع حالاً واحدة .

الثّاني : أنّ الثّوار الذين تودُّ أم سعد ترك خيمتها لأجل الالتحاق بهم في الجبهات ، هم أولاد الخيام في المخيّم ومنهم ابنها سعد ، فليس من المنطقيّ أن نحسب أنّ التحاق ابن الخيمة ، في المخيم ، «بخيمة الثورة» هو انتقال من طبقة اجتماعيّة إلى أخرى .

والفرق الذي تذكره أم سعد له بعد آخر ، لاحظه بعض الدّارسين :

«إنّ خيمة اللاجئ تغيّرت ، لقد أصبحت خيمة الفدائيّ المقاوم ، ورمز الصمود والكرامة والنهوض الثوريّ ، إنّها خيمة حملة البنادق»[1]

ترفض أمّ سعد التعامل مع رموز الخيانة التي تجلّت في عبد

---

(١) سميرة سليم أبو شقرة . تطوّر الوعي عند المرأة في روايات غسّان كنفاني ، الجامعة اللبنانيّة ، رسالة ماجستير ، بيروت ، ٢٠١٠ ، ص ٧٩ .

المولى قبل النّكبة ، وفي المختار بعدها ، فقد كانت تُميّز بين الحقيقيّ والزّائف ، وبين الثّائر والمختبئ في ثياب الثّائر ، وقد كانت ترجمة لقول غسّان كنفاني «إنّ ماهيّة الإنسان الفاعل هي وعيه الفاعل ، وهي قدرته على التمييز بين الحقيقيّ والزّائف»[1]

ويوم عاد فضل من الجبل - بعد ثورة ١٩٣٦ - دامي القدمين ، جلس على العتبة ، في حين نال التّصفيق عبد المولى ، الذي لم يشارك في القتال ، وركب على أكتاف فضل ، كانت تملك من الجرأة ما يكفي لتقترح الحل الأنجع في التعامل مع الخونة والانتهازيين «لو يومها قام فضل عن العتبة وطخّ عبد المولى أما كانت هذه المشكلة قد انتهت»[2]

وكانت أمّ سعد تحيط عنقها بقلادة صنعها لها شيخ في فلسطين لتقيها السوء ، فلما أدركت أنها لن تُغني عنها شيئا نزعتها ، واختارت أن تلبس قلادة جديدة عبارة عن طلقة مفرغة ، وفي جرأة الانتقال من حالة الجهل لحالة الوعي الثوريّ .

هذا ما أكّده الدّارسون وألحوا عليه :

---

(١) غسّان كنفاني . مجلّة الهدف ، العدد ١٢٦٥ ، الأحد ٣١ آب ١٩٦٧ .

(٢) غسّان كنفاني . الآثار الكاملة ، الرّوايات ، مؤسسة الأبحاث العربيّة ، بيروت ، ١٩٩٩ ، ص ٣٠٩ .

«إنّ الحجاب المرتبط بحفظ الإنسان ودفع الشّر عنه لا يُمكن أن يظلّ في مجتمع ثوريّ، كلمات أو رسوما مهمة كتبها شيخ أو آخر، وإن استخدام الطلقة المفرغة كعقد رمز دال على دخول العديد من الأفكار الجديدة، والأنظمة السلوكيّة المتقدمة على الحياة القديمة للجماعة»(١)

أضف إلى ذلك أن «المرأة التي تعيش في المخيّم لا تتزيّن بالذّهب لأنّها لا تملكه، وهي في ذلك تفتخر، وترمز إلى الطلقة بحيث تتزيّن بها لأنها رمز ثورتها، وهذا دليل على دخول الأفكار المتقدمة الجديدة التي بدأت تدخل على الثّورة»(٢)

أما الجرأة في هذا الموقف فتتجلى في صورتين :

الأولى : جرأة التّخلص من الأفكار القديمة والمعتقدات البالية .

الثّانية : التحدي الذي واجهت به المختار عندما جاء المختار ليتقصّى أخبار سعد يوم ذهب للجبهة، وكان الخيار العسكريّ وقتذاك جريمة يُعاقب عليها القانون، ورأى الطّلقة حول عنقها، فحاول أن يمدّ يده ليأخذها، فما

---

(١) حسّان رشاد الشّامي . المرأة في الرّواية الفلسطينيّة، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٩٨، ص ٨٦ .

(٢) رضوى عاشور . الطريق إلى الخيمة الأخرى، دار الآداب، طبعة أولى، بيروت، ١٩٧٧، ص ٥٣ .

كان منها إلا أن قالت له : «إنْ كنتَ رجلا حاول أن
تأخذها»[1]

رأينا في هذا المبحث أنّ غسّان كنفاني لم يكن يكتُب بقدر ما كان يرسم بالكلمات ، إذ قدّم صورة كاملة لامرأة جريئة ثائرة ، واستطاع أن يلج عالم النّساء حين يكُنّ ثائراتٍ ، بعكس ما أشيع عن تقصيره في دخول العالم النسويّ . وقدّم جزءاً من رؤيته وتصوّره للأم التي تكون جريئة في الحقّ ، لا تخشى ولا تخاف اللائمين .

---

(١) غسّان كنفاني . الآثار الكاملة ، الرّوايات ، مؤسسة الأبحاث العربيّة ، بيروت ، ١٩٩٩ ، ص ٣٢٤ .

المبحث الثّاني:
التّضحية في سبيل قضيّة تؤمن بها

آمن غسّان كنفاني بأنّ الطّريق إلى فلسطين يمرُّ عبر البندقيّة ، وبأنّ الطّرق الأخرى ليست أكثر من محاولات فاشلة للوصول! وكان يرى أنّ «أكتاف الرّجال خُلقت لحمل البنادق»[1]

غير أنّه كان يعرف تماماً أنّها ليست معركة الرّجال وحدهم ، إنّها معركة الشّعب كلّه ، وبالدّرجة الأولى معركة الأمهات اللاتي لا بُدّ أن يُرضعنَ أولادهنّ حليب الثّورة ، والتّمرد على الواقع ، ليغدوا فيما بعد فدائيين ، ويُصبحوا وقودا للثورة .

فأين كانت أمّ سعد من رؤية غسّان هذه؟ وهل ضحّت المرأة كما يُضحّي حملة البنادق من الرجال؟

«إنّ أم سعد في ثوريّتها تظلّ صورة للمرأة الأم ، وعطاؤها العظيم يُعطيها مكانة كأم ثوريّة أكثر منها ثوريّة في ذاتها

---

(١) غسّان كنفاني . الآثار الكاملة ، الرّوايات ، مؤسسة الأبحاث العربيّة ، بيروت ، ١٩٩٩ ، ص ٦٤٣ ،

وبذاتها ، فيظلّ دورها حتى في الثّورة دور المساعد وليس دور الفاعل الأساسيّ»[1]

هذا الكلام ، وإن كان في شِقّه الأول يؤيّد ما نذهب إليه ، أنّ المرأة ضحّت في سبيل ما تؤمن به ، إلا أنّنا نرى في شِقّه الآخر قصوراً في فهم دور الأمهات إبّان الثّورات . حين نتحدّث عن أمّ ثوريّة في ذاتها وبذاتها فإنّنا نُضيّق مفهوم الثّورة ، ونختزل عدد الثّوار ، ونحصره بحمَلة البنادق ، في حين أنّ تاريخ الثّورات يشهد أنّه ما من ثورة إلا وخرجتْ من البيوت ، وأنّه من غير المعقول أن نفرض على المرأة أن تحمل بندقيّة لتكون ثوريَّة . فبهذا المقياس قد لا نجد امرأة ثوريّة بذاتها .

حين نتحدّث عن دور المساعد ، علينا أن نسأل : هل اشتراك النساء في القتال مباشرة هو الدور الأساسيّ لهُنّ؟ وهل المرأة التي تخوض غمار الحرب ، مقاتلة ، هي ثوريّة بذاتها ، وما عدا ذلك قصور في أداء دورها الثوريّ؟

«أم مكسيم غوركي في رواية «الأم» لم تشترك في القتال ولم تحمل بندقيّة»[2] ولكنّها كانت أمّا ثوريّة ، وكذلك كانت أمّ

---

(١) رضوى عاشور . الطريق إلى الخيمة الأخرى ، دار الآداب ، طبعة أولى ، بيروت ، ١٩٧٧ ، ص ٦٨ .

(٢) بدر عبد المحسن . الرّوائيّ والأرض ، دار المعارف ، الطبعة الأولى ، مصر ، ١٩٧٩ ، ص ٤٠ .

سعد وأكثر ، فقد تمنّت لو أنها لم تُنجب لتستطيع السّكن في خيام الثّوار ، تطبخ لهم وتُدبّر أمورهم ، وقبل هذا وذاك أرضعتْ ابنها حليب الثّورة حتى أضحى مقاتلا .

ها هي أمّ سعد «تقف الآن تحت سقف البؤس الواطئ ، في الصّف الأوّل من المعركة ، وتدفع ، وستظلّ تدفع أكثر من الجميع»[1]

عندما تخرج امرأة من وطنها صفر اليدين ، ثم تضطر للعمل في البيوت لتأمين قوتها وقوت أولادها ، ثمّ تُرسل الأولاد التي شقيَتْ في تربيتهم إلى الجبهة ، فلا شكّ في أنّها تُضحّي أكثر منهم . وفي حال قُتلوا فإنهم يكونون قد ضحّوا بما يؤمنون به مرّة ، في حين تكون هي قد ضحّتْ مرّتين!

الأولى : حين ربّتهم ليُصبحوا ثوّاراً

الثّانية : حين تفقدتهم فعلا وما موت الأولاد إلا جنازة أخرى لأهاليهم!

وحين ينسحبون هم من المعركة تبقى هي «فالموت لم يكن يوما قضيّة الأموات بل قضيّة الأحياء»[2]

---

(١) غسّان كنفاني . الآثار الكاملة ، الرّوايات ، مؤسسة الأبحاث العربيّة ، بيروت ، ١٩٩٩ ، ص ٦٤٢ .

(٢) غسّان كنفاني . الآثار الكاملة ، الرّوايات ، مؤسسة الأبحاث العربيّة ، بيروت ، ١٩٩٩ ، ص ٥١٢ .

فهي بهذا تكون قد بدأتْ ثورتها قبلهم ، وستكملها بعدهم ، لذلك «كان صوتها هو صوت تلك الطّبقة الفلسطينيّة التي دفعت ثمن الهزيمة غاليا»(١)

كانت أمّ سعد تؤمن بأنّ «الأيدي تحلُّ المشاكل التي يعجز العقل عن حلّها»(٢) لهذا حجزت لها مكاناً منذ فجر الثّورة ، أرسلتْ ابنها سعداً ولدها البكر إلى الجبهة ، وأرسلتْ ابنها الصّغير سعيداً إلى مخيّم الأشبال ، ليتدرّب ويشتدّ عوده ، ويصبح فيما بعد مقاتلاً .

تحمّلت هي عبء الأسرة في غيابهم ، في ظل استهتار زوجها الحاضر الغائب «يرى الباحث في الرّواية الفلسطينيّة ، أنّ المساحة التي شغلتها العلاقة بين الأزواج ، لم تكن كبيرة قياسا إلى تلك المساحة التي شغلتها علاقة الأمّ بالأولاد ، فقد يكون الزّوج حاضرا غائبا في الوقت نفسه ، نتيجة لظروف اجتماعيّة تُعانيها الأسرة ، في ظلّ ظروفٍ سياسيّة معيّنة ،

---

(١) غسّان كنفاني . الآثار الكاملة ، الرّوايات ، مؤسسة الأبحاث العربيّة ، بيروت ، ١٩٩٩ ، ص ٦٤١ .

(٢) كارل يونغ . علم النّفس التحليليّ ، ترجمة محمود الرّبيعيّ ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٨٤ ، ص ٥١ .

فزوج أم سعد حاضر أشبه بالغائب»[١]

كان بإمكان أمّ سعد أن تختار راحتها الشّخصيّة ، فترسل ابنها للعمل بدل أن ترسله إلى الجبهة ، وتستريح وهي المرأة على أبواب الخمسين من عمرها ، في بداية ما تكون فيه الأمّ أحوج لأبنائها ، ولكنّها اختارت الأصعب . اختارت أن تكون لاعبا رئيساً في الصّراع ، فالمعركة معركتها قبل أن تكون معركة الآخرين .

لم يكن إرسال سعد إلى الجبهة قرارا متسرّعا ، اتخذته أمّ سعد في لحظة عاطفيّة ، فلم تكن الأيّام تزيدها إلا قناعة بصواب قرارها «ذهب المختار ليرى ، مرّ عليّ في الصّباح وقال لي : لا تخافي يا أم سعد ، سأعود لك به . الأهبل ، يعتقد أنّ هذا ما أريده»[٢]

إنّ الأم مهما زهدتْ فلن تزهد بأبنائها ، وحين تصل أمّ إلى هذه الدّرجة من الزّهد بابنها ، فلا شكّ في أنّها تعتبر أنّ قضيّتها أهمّ منها ، فهذه المرأة التي تجري الثّورة في دمائها هي

(١) حسّان رشاد الشّامي . المرأة في الرّواية الفلسطينيّة ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، ١٩٩٨ ، ص ٨٧ .

(٢) غسّان كنفاني . الآثار الكاملة ، الرّوايات ، مؤسسة الأبحاث العربيّة ، بيروت ، ١٩٩٩ ، ص ٢٥١ .

«نموذج استثنائيّ في أدب غسّان كنفاني»[١]

قد يتبادر إلى الذّهن أنّ أمّ سعد كانت تُعاني اضطرابا أموميّاً، وخللا عاطفيا، ولا يجتاحها ما يجتاح الأمهات، ذاك الشّوق للأولاد الذين هم مُهجة قلوب أمهاتهم، ولكنّ الوقائع تُثبت أنّها كانت سليمةً عاطفيا، مُعافاة، لها قلب أمّ بكل ما فيه من حنان، وعندها لهفة، ويطرق الشّوق باب قلبها كما يطرق قلوب الأمّهات على فراق أولادهنّ.

«قلت للمرأة التي جلستْ إلى جانبي في الباص، إنّ ولدي أضحى مقاتلا، قلتُ لها إنني أحبّه وأشتاق له، ولكنّه جاء ابن أمّه»[٢]

هو الإيثار على هيئة إنسان، أمّ وضعتْ أقدامها على عتبات الشّيخوخة، من حقّها أن تستريح، وتنتظر من أولادها جزاء كل ما قاسته لأجلهم، صِغاراً حين ربّتهم، وكباراً حين كانت تقتلع لهم رغيف الخبز من سلالم البناية التي كانت تمسحُ أدراجها! ولكنّ أمّ سعد لم تكن تنتظر المقابل، فثمّة أشخاص في الحياة - منهم أمّ سعد - يُعطون دون أن ينتظروا

---

(1) George Hajjar. Kanafani, Symbol of Palestine, published by George Hajjar, Bekaa, Lebanon, 1974. page 15.

(٢) غسّان كنفاني. الآثار الكاملة، الرّوايات، مؤسسة الأبحاث العربيّة، بيروت، ١٩٩٩، ص ٢٦٤.

المقابل ، يجدون أنفسهم حين يُعطون لا حين يأخذون .

وتتتابعُ أحداث الرواية و«يحقق كنفاني العلاقة العضويّة بين الأدب والحـيـاة ، ويبـرهن أن الأدب جـزء لا يتـجـزّأ من الحياة ، إلا أنّه ذو طبيعة خاصة ، مميزة ، في الجهاز العضويّ الاجتماعيّ ، فأدب غسّان ليس انعكاساً للحياة ، وإنّما انكسار لها مثلما ينكسر الضّوء عند مروره من جسم آخر»(١)

تتابع أحداث الرّواية ، فيها شكل الأدب ، وجوهر الحياة ، الحياة التي فيها أشخاص يحْسَبون عطاءهم قليلاً على كثرة ما يُعطون ، ويحْسبون أخذهم كثيراً على قلّة ما يأخذون .

«قلتُ لجارتي هذا الصّباح : أودُّ لو عندي مثله عشرة»(٢)

فأمّ سعد التي لم تأخذ من الحياة أكثر مما فاض عن الحياة ، رغيف يابس ، وشربة ماء ، وقليل من هواء تحتاجه لتكمل مسيرتها في الحياة . قدّمت ابنها في سبيل قضيّة تؤمن بعدالتها ، وما زالت تنظر إلى نفسها على أنها مقصّرة ، وأنّه كان بإمكانها أن تُقدّم للقضيّة أكثر من مقاتل واحد ، ولكنّ الحياة - التي قدّمت لها أمّ سعد كثيراً - لم تُعطها أكثر من مقاتل

---

(1) Levin Harry. The Gates of Horn, Oxford University Press,1963 , page 32

(٢) غسّان كنفاني . الآثار الكاملة ، الرّوايات ، مؤسسة الأبحاث العربيّة ، بيروت ، ١٩٩٩ ، ص ٢٦٣ .

واحد ، وآخر كان ما زال صغيراً ، أي مقاتل مع وقف التنفيذ!

و«تُشكّل أم سعد أخطر وثيقة فنيّة تحمل صورة تلك الطّفرة التي نقلت الشّعب الفلسطينيّ من دائرة الذّل والخضوع ، والنكسات المتتالية ، إلى دنيا الثّورة ، والتّمرد ، والإرادة المُخلصة في بناء مستقبل جديد ومشرق ، وإعادة الاعتبار للذات الفلسطينيّة الممزّقة»(١)

ولأنّ الانتقال من دائرة الذّل والخنوع ، إلى دنيا الثّورة والتّمرد ، يلزمه بالضّرورة انتقال من حيّز الخطاب و«العنتريّات» الكلاميّة إلى حيّز العمل . كانت أمّ سعد تُحوّل المواعظ إلى عمل ، حتى أنّها لم تُجامل غسّاناً الذي تُحبّه

«أنتَ تكتبُ رأيكَ ، أنا لا أعرفُ الكتابة ، ولكني أرسلتُ ابني إلى هناك ، قلتُ بذلك ما تقوله أنتَ أليسَ كذلك؟»(٢)

وبروح التّضحية ، والإحساس العالي بالمسؤوليّة ، تُطالعنا أمّ سعد من جديد «إن لم يذهب سعد فمن سيذهب؟»(٣)

---

(1) Wild Stefan. Ghassan Kanafani, The Life Of a Palestinian, Otto, Harrassowitz, Weisbadeb, Germany 1995, page 53.

(٢) غسّان كنفاني . الآثار الكاملة ، الرّوايات ، مؤسسة الأبحاث العربيّة ، بيروت ، ١٩٩٩ ، ص ٢٧١ .

(٣) غسّان كنفاني . الآثار الكاملة ، الرّوايات ، مؤسسة الأبحاث العربيّة ، بيروت ، ١٩٩٩ ، ص ٢٦٣ .

«إنّها تعترف ضمنا أنّ فلسطين لا يُحرّرها إلا أبناؤها ، لذلك دفعتْ بابنها راضية إلى المعركة ، ولم تجزع كما كان مأمولاً منها أن تفعل ، عندما يندفع ابنها ناحية الخطر ، أحسّت بالتجربة المُعاشة أنّ الخطر الحقيقيّ على ابنها - وبالتالي على شعبها كلّه - هو بإيكالهم أمر قضيّتهم إلى غيرهم .»[١]

آمَنَ غسّان كنفاني بأن «الإنسان لا ينمو بل يُولد فجأة ، لحظة ما في زمان ما ، قد تنقله من موقف إلى آخر غير معتاد»[٢]

وهكذا وُلد أبو سعد فجأة آخر الرّواية ، فجأة كفّ عن السّهر وأصبح أكثر ليونة في حديثه ، وأكثر حنانا في تعامله ، وُلد ليُعطي أمّ سعد شهادة التّضحية مع مرتبة الشّرف .

«وشدّ أبو سعدٍ زوجته نحوه وأشار لها قائلا للرّجل العجوز الذي كان ما زال ينظر إلى السّاحة : هذه المرأة تلد الأولاد فيصيروا فدائيين ، هي تُخلّف وفلسطين تأخذ»[٣]

---

(١) نجمة خليل أحمد . النموذج الإنسانيّ في أدب غسّان كنفاني ، بيسان للنّشر والتوزيع والإعلام ، بيروت ، ١٩٩٩ ، ص ٤٣ .

(2) Anni Kanafani. Kanafani, Ghassan Kanafani, second printing published by the Palestine Research Center, Beirut, Lebanon, 1971.

الكُتيّب غير مُرقّم

(٣) غسّان كنفاني . الآثار الكاملة ، الرّوايات ، مؤسسة الأبحاث العربيّة ، بيروت ، ١٩٩٩ ، ص ٣٣٤ .

هذه هي أمّ سعد مصنع الفدائيّين ، وخزّان الثورة البشريّ ، وكأن بينها وبين فلسطين عقداً ممهوراً بالعطاء ، فهي تلد وفلسطين تأخذ!

بذلك تتخطى أم سعد ذاتها ، وتتحول من امرأة واحدة تعيش في هامش المخيم والحياة ، إلى رمز يشير إلى كل اولئك الأمهات اللائي قدمن أولادهن قرابين على مذبح الثورة والوطن .

انتهى مبحثٌ آخر ، رأينا فيه غسّان كنفاني يطرق باب الأمهات بأنامل البحث والتحليل ، ويدخل كنه بنائها النفسيّ . يكشف لنا كيف تثور الأمّ وتبقى أمّاً . تحنُّ وتشتاق وتُضحّي وهي في أوج حبّها لمن تُضحّي به . تُعطي وهي في أمسّ الحاجة لما تُعطيه . يظهرُ لنا غسّان قريباً من عالم النّساء ، عارفاً بخباياه وتفاصيله يثبت أنّ أدبه غير محصور بقضايا الرّجال ، وقاصر عن تصوير عالم النّساء .

المبحث الثّالث:
التّعلّق بالأرض

ترى إميلي نصر الله أنّ لأمّ سعدٍ وجوهاً تسعة

١ . المرأة القادمة من البعيد تفوح منها رائحة المخيّمات

٢ . وجه الثّائرة

٣ . المرأة الواعية

٤ . امرأة التّفاؤل والحلم

٥ . المرأة السّاخرة

٦ . المرأة الذّاكرة

٧ . المرأة المقاومة

٨ . المرأة الأسطورة

٩ . أمّ سعد الأرض [١]

وسندرسُ في هذا المبحث الوجه الأخير لأمّ سعد ، ونرى مدى تعلّقها بالأرض ، فما كان اللجوء ولا كانت المخيّمات إلا نتيجة لخسارة الأرض ، وما كانت الثّورة إلا لاستعادتها .

حجزتْ أمّ سعد - باكرا - مكانها في الصّف الأول من

---

(١) اميلي نصر الله . السّفير ، العدد ٨١ .

المعركة ، وأشارتْ بذلك إلى أنّها وإن لم تعد تعيش فوق الأرض ، فإن الأرض تعيش فيها .

فالثّائر وأرضه توأمان سياميان متى أفلح عدوّه في الفصل بينهما أفلح في انهاء ثورته .

«لقد أراد غسّان أن يثبط من خلال شخصيّة أمّ سعد مقولة الصهيونيّ التي تتعامل مع الإنسان العربيّ بشكل تجرّده من وجوده المتعين تجريدا متزايدا حتى يختفي ، ويتحوّل من العربيّ المتخلّف إلى العربيّ الغائب»[1]

صبيحة نكسة حزيران - وعلى واقع خسارة جزء آخر من الأرض - تحضر أمّ سعدٍ إلى بيت غسّان يحدوها الشّوق إلى الأرض أكثر من ذي قبل . تخبره بطريقة أخرى أنّه رغم هزيمة البشر إلا أنّ الأرض ما زالت على موعد مع أبنائها ، وأنّ الأرض هي الأرض مهما تغيّر البشر ، وما دام بإمكان العود اليابس أن يُصبح دالية فإنّ المعركة لم تنتهِ بعد!

يقول غسّان كنفاني في الرّواية :

«وضعت صُرّتها الفقيرة في الرّكن ، وسحبتْ من فتحتها عرقاً بدا يابساً ، ورمته نحوي :

- قطعته من دالية صادفتني في الطّريق ، سأزرعه لك على

---

(١) عبد الوهّاب المسيري . الأيديولوجيّة الصهيونيّة ، سلسلة عالم المعرفة ، العدد ٦١ ، المجلس الوطنيّ للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، ص ١٧٦ .

الباب ، وفي أعوام قليلة تأكل عنباً .

- قلت : قضيب ناشف

- إنّه يبدو كذلك ولكنّه دالية»[1]

«بهـذا التـفـاؤل وهذا الأمل ، بل بهـذا اليـقين تأتي أمّ سعد»[2]

تأتي وكأنّها تحمل الرّيف الفلسطينيّ معها بدواليه وزيتونه وقمحه «ودخلتْ أمّ سعد ففوّحت في الغرفة رائحة الرّيف»[3] ثمّ يتّضحُ مدى تعلّقها بالأرض عندما تُعلنها صراحةً أنّ كل ما يربطها بالحياة الآن هو أنّها لا تريد أن تموت قبل أن ترى أرضها .

«أريد أن أعـيش حـتى أراها ، لا أريد أن أمـوت هنا في الوحل ووسخ المطابخ»[4]

---

(١) غسّان كنفاني . الآثار الكاملة ، الرّوايات ، مؤسسة الأبحاث العربيّة ، بيروت ، ١٩٩٩ ، ص ٢٤٩ .

(٢) أمل زين الدين وجوزيف باسيل . تطوّر الوعي في نماذج قصصيّة فلسطينيّة ، دار الحداثة ، الطبعة الأولى ، بيروت ، ١٩٨٠ ، ص ٧٢ .

(٣) غسّان كنفاني . الآثار الكاملة ، الرّوايات ، مؤسسة الأبحاث العربيّة ، بيروت ، ١٩٩٩ ، ص ٢٤٦ .

(٤) غسّان كنفاني . الآثار الكاملة ، الرّوايات ، مؤسسة الأبحاث العربيّة ، بيروت ، ١٩٩٩ ، ص ٢٧١ .

مرّة أخرى يهُزّها الحنين إلى الأرض «والزيتون لا يحتاج إلى ماء أيضا ، إنّه يمتصُّ ماءه عميقاً في بطن الأرض ، من رطوبة التراب»(١)

هذه الدّراية في شؤون الزّراعة ، وتدبير الأرض ، ليس وقتها الآن ، فأمّ سعدٍ لم تزرعْ ولم تقلعْ منذ عشرين سنة ، ولكنّ خسارة العرب للحرب أيقظت فيها الحنين إلى الأرض ، فكأنّ الهزائم تجعل الأرض أبعد قليلا ، وهذا ما كانت تخشاه أمُّ سعد .

العلاقة بينها وبين الأرض أكبر من علاقة بين أرضٍ وساكنها ، إنّها علاقة اتحاد ، فكأنّ أمّ سعد الأرض ، والأرض أمّ سعد «وبدتْ لي القصّة كلّها على جبينها الذي له لون التّراب»(٢)

في الحقيقة ليس جبينها الذي له علاقة بالتراب والأرض فقط ، فكأنّ أمّ سعد جزء مقتطع من الأرض . هكذا تبدو للقارئ والدّارس معاً .

«تتضح صورتها خلال امتزاج ملامحها الخارجيّة بصورة

---

(١) غسّان كنفاني . الآثار الكاملة ، الرّوايات ، مؤسسة الأبحاث العربيّة ، بيروت ، ١٩٩٩ ، ص ٢٥٠ .

(٢) غسّان كنفاني . الآثار الكاملة ، الرّوايات ، مؤسسة الأبحاث العربيّة ، بيروت ، ١٩٩٩ ، ص ٢٥٠ .

الأرض وأشيائها، وتوحّدها الدّائم بالأرض التي تعشقها، وتستمدّ منها وجودها وكيانها وصمودها العريق، فها هي تظهر بطلّتها البهيّة المعبّرة التي تنمّ عن عنفوانها وإبائها، فتبدو للرّاوي وهي قادمة من رأس الطّريق المحاط بأشجار الزّيتون مثل شيء ينبثق من رحم الأرض، فهذه المرأة تجيء دائما، تصعد من قلب الأرض وكأنّها ترتقي سُلّما لا نهاية له»(١)

ولمثل هذا ذهبت الباحثة فيحاء عبد الهادي

«كل ما اكتسبته أمّ سعد من صفات خارجيّة:

- جبينها الذي له لون التّراب

- كفّاها اللتان تبدوان جافتين كقطعتي حطب مشققين كجذع هَرِم.

- ساعدها الأسمر القويّ الذي يشبه لون الأرض

وإلى غير ذلك من صفات أو تشبيهات يحيلنا إلى طبيعة حياتها الاجتماعيّة، ومعاناتها، وشقائها، فنقف على مدى صمودها، وتجذّرها بالأرض وما تحيله من دلالات»(٢)

في حوار دار بين أمّ سعد وغسّان تُخبر أمّ سعدٍ غسّاناً أنّ

---

(١) حسّان رشاد الشّامي. المرأة في الرّواية الفلسطينيّة، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٩٨، ص ٨٧.

(٢) فيحاء عبد الهادي. وعد الغد، دار الكرمل للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، عمّان، ١٩٨٧، ص ٥٣.

سعداً بعد أن انضمّ إلى الثورة حمل البندقيّة وعبَرَ الحدود. فيسألها غسّان: عبر الحدود إلى أين؟

هذا السؤال رأته أمّ سعد سؤالاً مستفزاً فقالت: «كأنّك لا تعرف! نعم يقطع الحدود إلى أين؟»(١)

فبالنسبة لأم سعد ليس للبندقيّة إلا قبلة واحدة هي تلك الأرض التي تحبّها حتّى الثّمالة، وكلّ وجهة غير تلك الوجهة هي انحراف في مسار الثّورة.

وأمّ سعد المتعلّقة بأرضها تعلّقَ الجنينِ بحبل أمّه السّريّ كانت تعرف أنّ الأرض لن تُخيّب ظنّها، فبما أنّ العود اليابس أصبح دالية فإن الهزيمة لا شكّ ستتحول نصراً.

و«تدرك أمُّ سعد، بالرغم من عفويّتها، أنّ العود اليابس لن يبقى يابسا، وأنّ الهزيمة لن تبقى هزيمة»(٢)

لهذا تُخبر غسّاناً وابتسامة النّصر مرتسمة على ثغرها «وفوّحتْ الغرفة برائحة الرّيف العريق حين أخذت أمّ سعد صرّتها الصّغيرة وتوجّهت إلى الباب، ولوهلة اعتقدتُ أنّها مضتْ، إلا أنّي سمعتُ صوتها من بين المصراعين المفتوحين

---

(١) غسّان كنفاني. الآثار الكاملة، الرّوايات، مؤسسة الأبحاث العربيّة، بيروت، ١٩٩٩، ص ٢٥١.

(٢) رضوى عاشور. الطريق إلى الخيمة الأخرى، دار الآداب، طبعة أولى، بيروت، ١٩٧٧، ص ٨١.

على وسعهما : برعمتْ الدالية يا ابن العم برعمت!»[1]

بهذا التّعلق بالأرض ، وبهذا الأمل ، تشدُّ أمّ سعد من أزر الرّواية ، وهذا ما يندر في الأعمال الرّوائيّة ، أن تكون رواية مثار جدل حتى إن كانت رواية حقاً ، فثمة من يراها غير مكتملة ، وثمّة من يُسوّغ «نُلاحظ تغيّراً في بناء رواية أم سعد ، فالبنية المدماكيّة للقصة التقليدية لم تعد قادرة على استيعاب الواقع الجديد بعد الهزيمة»[2]

وحين ينتقد الدّكتور سامي اليوسف بناء رواية أمّ سعد ، يبدي إعجابا بشخصيّة أم سعد ، ويحسبها الإيجابيّة الأساسيّة للرواية .

«نُلاحظ أنّ شخصيّة أم سعد نفسها صورة فنّيّة رائعة للإنسان الفلسطينيّ المتفائل في أواخر الستينيّات ، وربما كانت هذه الشّخصيّة هي الإيجابيّة الأساسيّة للرواية»[3]

---

(١) غسّان كنفاني . الآثار الكاملة ، الرّوايات ، مؤسسة الأبحاث العربيّة ، بيروت ، ١٩٩٩ ، ص ٢٣٦ .

(٢) دراسات في القضيّة العربيّة ، وقائع ندوة مكناس ، مؤسسة الأبحاث العربيّة ، ص ٩٩ .

(٣) سامي اليوسف . رعشة المأساة ، دار منارات ، الطبعة الاولى ، عمّان ، الأردن ، ١٩٨٥ ، ص ٨١ .

خاتمة الفصل الأوّل

هكذا انتهى المبحثُ الثّالث والأخير في هذا الفصل ، ورأينا فيه - كما في المبحثين الأوّلين - غسّان كنفاني يلجُ عالم النّساء ، ويُقدّم صورة للمرأة حين يغلب حبّها للأرض كلّ حب . ولا شكّ في أنّ الحبّ والتعلّق والوله من أعمال القلوب والتي لا يستطيع تصويرها عند شخص من كان على دراية سطحيّة به .

وحين يُصوّر غسّان كنفاني المشاعر فلا شكّ أنّه يعرفها عن قرب ، وأنّه أحسّ بها ، وخبرها ، وإلا ما كان ليكتب عنها بهذا الاقتدار

«فالكتابة ليست فنّ تحويل النّحاس إلى ذهب ، ولا استخراج الوجود من العدم ، إنّها فعل الصّدق بالدّرجة الأولى»[1]

إذاً بعكس ما ترى رضوى عاشور ومعها آخرون «إذا أخذنا كتابات غسّان كنفاني ككل فسوف نجد فيها صورة المرأة قليلة

---

(١) نزار قبّاني . الأعمال النّثريّة الكاملة ، منشورات نزار قبّاني ، الجزء السّابع ، الطّبعة الثّانية ، بيروت ، لبنان ، ١٩٩٩ ، ص ٢٥٩ .

للغاية ، إنّه يعرف الرّجال أكثر ، وبالتّالي فهو يكتب عنهم ، ومن البديهيّ والمسلّم به أنّ من حق كل كاتب أن يكتب عمّا يعرف أكثر . ومع هذا أقول أنّه ما دام غسّان كنفاني قد اضطلع بمهمة الكتابة عن الوجود القومي لأمة وماهيتها ، فإنّ غياب المرأة كأمّ وأخت ، أي كامتداد للرجل مركز الوجود والصّورة ، يظلّ عيبا يؤخذ عليه»[(١)]

على المقلب الآخر ، نجد آخرين يذهبون إلى ما نذهب إليه «أعطى غسّان كنفاني المرأة موقعاً متقدماً من منطلق إيمانه بالمساواة ، وعدم التمييز التقليديّ بين الرّجل والمرأة ، على اعتبار أنّ الأول صاحب الرّأي والنّهي ، وصاحب الإمكانات والفُرص ، والمرأة مجرد جسم تكميليّ ، وقارب غسّان قضيّة المرأة من فهم تقدّميّ ، على خلاف الاعمال العربيّة التقليديّة التي لا تحسن التعامل مع قضايا المرأة»[(٢)]

هكذا هو غسّان المثير في حياته موته وأدبه ، ينقسم حوله الناس ، ويختصمون فيه من النقيض للنقيض ، بين من يراه على هذا المقلب من هذه القضية أو تلك ، ومن يراه في ذاك

---

(١) رضوى عاشور . الطريق إلى الخيمة الأخرى ، دار الآداب ، طبعة أولى ، بيروت ، ١٩٧٧ ، ص ١٠٣ .

(2) Mohammad Siddiq. Man is a case, published by the Palestinian Research Center, second print, Beirut, 1973, page 75.

المقلب من هذه القـضيـة أو تلك . ورغـم هذا اتضح بعض مـا افترضناه ونحاول اثباته ، وسنميط عنه اللثام في الفصل الثاني أكثر ، إذ ندرس فيه ملامح الأم العاملة في شخصيّة أم سعد ، لعل هذا يعطينا مشهدا متكاملا لهذه الشخصية ، ومن ثمّ مدى قدرة غسّان على ولوج عالم الأمهات .

الفصل الثّاني:

الأم العاملة

الفصل الثّاني:
الأم العاملة

مقدّمة الفصل:

حين نتحدّث عن مخيّمات اللّجوء في حقبة الستِّينات ، يجب أن لا يغيب عن بالِنا أنّ الفقر كانَ فرداً من أفراد كلّ أسرة .

ولم يكن عمل الرّجال في تلك الفترة يكفي لسدّ رمق الأسرة ، فالمجتمع الفلسطينيّ قبل النّكبة مجتمعٌ زراعيّ بامتياز ، الأمر الذي أدّى – بعد النّكبة – إلى تكدّس آلاف الأيدي العاملة دون كفاءات . لهذا اقتصر عمل الرّجال – في غالبيته – على العتالة ، والأشغال الشّاقة . ونظراً إلى كثرة الأيدي العاملة ، وغياب الكفاءات ، كان من الطبيعيّ أن تكون أجور العاملين زهيدة .

هذا كلّه أدى إلى خروج المرأة للعمل . نحن نتحدّث ، إذاً ، عن عمل المرأة بحثاً عن لقمة خبز ، لا عن عملها لتحقيق الذّات ، أو لتحصيل مرتبةٍ اجتماعيّةٍ مرموقة . من تلك النساء كانتْ أمّ سعد .

كان العمل طقساً يوميّاً تمارسه الأمّهات مضطرّاتٍ لا

مُختارات ، وكان أفراد المجتمع - ومنهم غسّان كنفاني - ينظرون إلى الأمّ العاملة نظرة تقدير وإجلال .

«لدى تتبعنا بالتّقصي والتحليل ، علاقة الأمّ بأفراد الأسرة ، لمسنا حرص الرّوائيّ الفلسطينيّ على أن يُقدِّم صورةً واقعيّةً حيّةً للأمّ الكادحة ، الصّابرة ، المربّية للأبناء ، الوفيّة للزوج ، المعينة له في شؤون العائلة ، بل الحاملة همّه ومسؤوليته أحياناً ، بالإضافة لمسؤوليتها كما الحال لدى أمّ سعد»[1]

لهذا سندرس في هذا الفصل ملامح الأم العاملة في شخصيّة أمّ سعدٍ الأنموذج الكنفانيّ للأمّ الفلسطينيّة .

وقد قُسّم هذا الفصل إلى ثلاثة مباحثٍ هي :

المبحث الأوّل : ملامح المعاناة عند الأمّ العاملة .

المبحث الثّاني : الحسّ الإنسانيّ عند الأمّ العاملة .

المبحث الثّالث : الأمُّ العاملة والحياة الزَّوجيّة .

---

(١) هاشم ياغي . القصّة القصيرة في فلسطين والأردن ، المؤسسة العربيّة للدّراسات والنّشر ، الطّبعة الثّانية ، بيروت ، ١٩٨١ ، ص ٧٥ .

المبحث الأوّل:
ملامح المعاناة عند الأمِّ العاملة

تُعدُّ رواية أمِّ سعد مجالاً خصيباً لدراسة عمل المرأة الفلسطينيّة في حقبة السّتينات ، وفهم تأثير العمل على بنائها الجسديّ ، وتركيبها النفسيّ . «في رواية أمّ سعد يُقدّم كنفاني المرأة الفلسطينيّة الكادحة التي كابدتْ بؤس المخيّم بكلّ أبعاده ، وعاشتْ عشر سنواتٍ من عمرها في التعب والعمل كي تنزع لقمتها ، ولُقم أولادها ، تخدِمُ في بيوت الآخرين ، وبيت الرّاوي .»[١]

لأنّ الأميّة كانتْ مُتفشّيةً في المجتمع الفلسطينيّ آنذاك بين الرّجال فضلاً عن النّساء ، لم تكن المرأة لتحصل على عمل مريح ، لهذا اقتصر عمل النّساء على الخدمة في المنازل ، وتنظيف سلالم البنايات . من حيث المبدأ نرى هذا النّوع من الأعمال لا يتناسب وطبيعة المرأة الرقيقة . وقد أصبح عبئاً إضافيّاً أُضيفَ إلى وظيفتهن الأساسيّة وهي رعاية الأولاد ،

---

(١) حسّان رشاد الشّامي . المرأة في الرّواية الفلسطينيّة ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، ١٩٩٨ ، ص ٩٤ .

وتدبير شؤون البيت . هذا الأمر جرّ تعباً جسديّاً على المرأة ، وضغطاً نفسيّاً يصل لدرجة الشّقاء . ومن هؤلاء النّساء كانتْ أمّ سعد محطّ دراستنا ، ولنترك غسّان كنفاني يرسم بقلمه لوحة شقاء أمّ سعدٍ .

«إنّها سيّدة في الأربعين ، كما يبدو لي ، قويّة كما لا يستطيع الصّخر ، صبورة كما لا يُطيق الصّبر ، تقطع أيّام الأسبوع جيئة وذهابا ، تعيش عمرها عشر مرّات في التّعب والعمل كي تنتزع لقمتها النّظيفة ، ولُقم أولادها»[1]

هي أمّ سعدٍ إذاً ، الصّخر على شكل امرأة ، والصّبر في هيئة أمّ . تعيش عمرها مضاعفاً بالكدّ ، فلا وجود لكلمة الرّاحة في قاموس حياتها ، كخليّة النّمل لا تعرف إلا العمل - داخل البيت وخارجه - تخرج صباحاً وتعود مساءً ، في رحلة البحث عن رغيف نظيفٍ لها ولأولادها ، فأمثال أمّ سعدٍ لا يعرفن كيف يمدّن أيديهن ليستعطين . الجوع عندها أهون من نظرات الشفقة في عيون الآخرين ، وقد اعتادت دوماً أن تتدبّر أمورها بنفسها .

«يلفت الباحث في الرّواية الفلسطينيّة أنّه نادراً ما يقع على صورة المرأة المسحوقة التي تستجدي لقمتها ، ولقم

---

(١) غسّان كنفاني . الآثار الكاملة ، الرّوايات ، مؤسسة الأبحاث العربيّة ، بيروت ، ١٩٩٩ ، ص ٢٥٩ .

صغارها ، مما تجود به نفوس المحسنين أو المشفقين ، فعلى رغم مظاهر الفقر والبؤس وشظف العيش ، لم يكن ذلك ليؤثّر على مشاعر الكبرياء والعزّة التي تنطوي عليها نفوسهم المكلومة .»[1]

يرسم لنا غسّان كنفاني بالكلمات لوحةً تضجُّ بالأسى ، وتُظهر ملامح المعاناة التي خلّفها العمل الشّاق على أمّ سعدٍ . فها هو يتأملها قطعة قطعة : امرأة في أواخر الأربعين ، التحقت بركب العجائز باكراً لكثرة ما شَقيتْ ، كفّان جافّان كقطعتي حطب يابس ، مشققين كجذع هرِم أعمل فيه الزمن مبضعه جيئةً وذهاباً ، حفرتْ فيهما سنوات العمل الصّعب أخاديد ماثلة للعيان .

«وفجأة رأيتها هناك ، عجوزاً قويّة ، اهترأ عمرها في الكدْح الشّقيّ ، وكانت كفّاها مطويّتين على حضنها ، رأيتهما هناك جافّتين كقطعتي حطب ، مشققين كجذع هرِم ، وعبر الأخاديد التي حفرتها فيهما سنون لا تُحصى من العمل الصّعب ، رأيتُ رحلتها الشّقيّة مع سعد ، مُذ كان طفلاً إلى أن شبّ رجلاً ، تعهّدته هاتان الكفّان مثلما تتعهّد الأرض ساق العشب الطريّة»[2]

---

(١) فاروق وادي . ثلاث علامات في الرّواية الفلسطينيّة ، المؤسسة العربيّة للدراسة والنّشر ، الطبعة الأولى ، بيروت ، ١٩٨١ ، ص ١٠٦ .

(٢) غسّان كنفاني . الآثار الكاملة ، الرّوايات ، مؤسسة الأبحاث العربيّة ، بيروت ، ١٩٩٩ ، ص ٢٦٠ .

أمّ سعدٍ الشّامخة كالجبل ، الصّلبة كصخوره ، كانتْ نهاية في المطاف إنساناً كالآخرين ، يهدّه التّعب ، وتخونه دموعه في لحظة انكسار ، ولكنّ أمّ سعدٍ الفريدة في كل شيء ، كانت فريدة أيضاً بدموعها! بكاؤها لم يكن يُشبه أيّ بكاءٍ خبره غسّان كنفاني من قبل ، فهي تبكي مثلما تتفجّر الينابيع من الأرض . يتفجّر الدّمع من مسام جلدها كلّه ، تدمع يداها ، ويقطر شعرها دمعاً ، شفتاها تبكيان ، عنقها يبكي ، ثوبها ، وجبهتها ، والشّامة المُعلّقة على ذقنها كالرّاية . كلّ شيءٍ فيها يبكي إلا عينيها! فالجبل لا ينسى أنّه جبل ولو في لحظة ضعف ، والصّخر لا يلين تحت مطرقة الحياة ، إنّه يتفتت ولا يركع!

«لقد رأيتُ أناساً كثيرين يبكون ، رأيتُ دموعاً في عيونٍ لا حصر لها ، دموع الخيبة واليأس والسّقوط ، الحزن والمأساة والتّصدّع . رأيتُ دموع الوجد والتّوسل . الرّفضُ الكسيح والغضب المهيض الجناح . دموع النّدم والتّعب ، الاشتياق والجوع والحبّ ، ولكنّها أبداً لم تكن مثل دموع أمّ سعدٍ ، لقد جاءت مثلما تتفجّر الأرض بالنبع المُنتظِر منذ أوّل الأبد ، مثلما يستلّ السّيف من غمده الصّامت ، ووقفتُ هناك على بعد لحظةٍ واحدة من بريق العين الصّامدة . عمري كلّه لم أرَ كيف يبكي انسان مثلما بكتْ ام سعد . تفجّر البكاء من مسام جلدها كلّه . أخذتْ كفّاها اليابستان تنشجان بصوت مسموع ،

كان شعرها يقطر دموعاً . شفتاها ، عنقها ، مُزق ثوبها المُنهك ، جبهتها العالية ، وتلك الشّامة المُعلّقة على ذقنها كالرّاية ، ولكن ليس عينيها»[١]

عندما يُلاحظ غسّان كنفاني أنّ أمّ سعد تبكي - إلا من عينيها - يستغربُ ، وهو الذي يعرف شموخ أمّ سعدٍ وصبرها . لهذا يسألها : أتبكين؟

ولكنّ أمّ سعدٍ تبلغُ أوج كبريائها وتجيبه :

«أنا لا أبكي يا ابن عمي . أودُّ لو أستطيع ، لقد بكينا كثيراً . كثيراً . . . كثيراً . أنتَ تعرف . بكينا أكثر مما طافت المياه في المُخيّم ليلة أمس ، لا أحد يبكي الآن ، ولكنّني يا ابن عمي ، صرتُ امرأةً عجوزاً . صرتُ أتعب . أمضيتُ الليل غارقةً في الوحل والماء ، أمضيتُ عشرين سنةً كذلك»[٢]

على وطأة التّعب يُغادرها مارد الصمود . يتركها إنسانة كالأخرين ، تستسلم للحياة أو تكاد . الحياة التي لم تعد أمّ سعدٍ راغبةً فيها لكثرة ما أتعبتْها . في ذلك الصّباح لم تتناول فطورها على حاجتها للطّعام ، وهي التي تبدأ مهماتها الشّاقة

---

(١) غسّان كنفاني . الآثار الكاملة ، الرّوايات ، مؤسسة الأبحاث العربيّة ، بيروت ، ١٩٩٩ ، ص ٢٧٠ .

(٢) غسّان كنفاني . الآثار الكاملة ، الرّوايات ، مؤسسة الأبحاث العربيّة ، بيروت ، ١٩٩٩ ، ص ٢٧٠ .

قبل أن تبدأ الشّمس مهمّة إنارة الأرض، وتبقى غارقةً في كدّها حتى بعد أن تُنهي الشّمس عملها اليوميّ وتخلد للراحة!

«- لماذا لم تتناول فُطورك؟

- أنا لم أتناول فطوري أيضاً، أنتظر شيئاً ما يفتحُ شهيّتي ليس للأكل فحسب، ولكن للحياة أيضاً»[١]

ومرّةً أخرى - وتحت وطأة التّعب أيضاً - ينفلتُ الإنسان الرّقيق داخل أمّ سعدٍ، من بين ثنايا الصّخر الذي صنعت منه نفسها، لتواجه قسوة الحياة. لقد بلغ منها التّعب مبلغاً، ولم تعد قادرةً على الكِتمان، وها هي تبوح:

«أنا مُتعبة يا ابن عمّي. اهترأ عمري في ذلك المخيّم. كلّ مساءٍ أقول يا رب! وكلّ صباح أقول يا رب! وها قد مرّتْ عشرون سنة.»[٢]

لا نُبالغ إذ نقول، إنّ رحلة البحث عن الرّغيف التي كانتْ تمشيها أمّ سعدٍ كلّ يوم، على مدار عشرين سنة، كانت قطعة من العذاب! لقد تخطّتً المعاناة قليلا، أو لعلّها تخطّتها كثيراً. امرأة على مشارف الخمسين، تغسل سلالم البناية بالماء البارد،

---

(١) غسّان كنفاني. الآثار الكاملة، الرّوايات، مؤسسة الأبحاث العربيّة، بيروت، ١٩٩٩، ص ٢٥٢.

(٢) غسّان كنفاني. الآثار الكاملة، الرّوايات، مؤسسة الأبحاث العربيّة، بيروت، ١٩٩٩، ص ٢٦٣.

في برد الشّتاء القارس، وفي منتصف الليل، أحْوَجُ ما يكون الإنسان فيه للراحة والدّفء وفراشٍ وثير.

«كانتْ أمّ سعدٍ قد وصلتْ، نازلةً، إلى الطّابق الثّالث، لاهثةً وراء الماء ورغوة الصّابون وبرد الشّتاء يقرس قدميها الحافيتين. بلَحْم كفّيها المضرجتين بآثار أحذية الصّاعدين والهابطين، كانتْ تفرك الأرض الرّخاميّة وسط ليل النّاس النّائمين عميقاً في دفء غرفهم المترامية وراء الأبواب المُغلقة»[١]

وتُعلّق آني كنفاني، زوجة غسّان، على هذا المقطع من الرّواية:

«كتبَ غسّان كثيراً عن بؤس المُخيّمات وشقاء النّاس، وكان بارعاً جدّاً في تحويل الكلام لمشهد متحرّك، ولكنّي لا أذكر مشهداً أبكاني كيوم كتبَ عن عمل أمّ سعدٍ في غسل أدراج البناية بالماء البارد في إحدى ليالي كانون، يومذاك بكيتُ كما لم أفعل من قبل، وكلّما كنتُ أعيد القراءة كنتُ أراها ماثلة أمامي على الدّرج في الطّابق الثّالث ترتجف»[٢]

---

(١)غسّان كنفاني. الآثار الكاملة، الرّوايات، مؤسسة الأبحاث العربيّة، بيروت، ١٩٩٩، ص ٣١٦.

(1) Anni Kanafani. Kanafani, Ghassan Kanafani, second printing published by the Palestine Research Center, Beirut, Lebanon, 1971

الكُتيّب غير مُرقّم.

ويُعيدنا غسّان لراحتي أمّ سعدٍ ، الدّليل الدّامغ على شقائها ومعاناتها . فإذا كانت أمّ سعدٍ تحبس بكاءها في قفص صبرها ، وتحبس الأنين في قفص صدرها ، فإنّ يديها كانتا طليقتين ، تقولان كلّ ما كانتْ أمّ سعدٍ ترفضُ أن تقوله!

«عادتْ أمّ سعدٍ ، ففرشتْ راحتيها أمامي ، كانت الجروح تمتدُّ فوق خشونتهما أنهراً حمراء جافّة ، تفوح منها رائحة فريدة ، رائحة المُقاومة الباسلة حين تكون جزءاً من جسد الإنسان ودمائه .»[1]

وعلى امتداد الرّاوية أفلح غسّان في أن يغيب ، ويُعطي الحضور كاملاً لأمّ سعدٍ ، وهذا ما يُحسبُ له ، ولكن ما يؤخذُ عليه ، أنّه قال ، أحياناً ، بلسان أمّ سعدٍ ما لا تستطيعه امرأة في مثل ثقافتها ومكانتها الاجتماعية أن تقوله .

صحيح أنّ هذا لا يقدحُ في بناء الرّواية ، ولا في أسلوبها ، ولكنّه حين حدّد الخطوط العريضة للرّواية ، أخبر أنّ الكلام كلام أمّ سعدٍ «وأكاد أقول أنّ كل حرف جاء في السّطور التّالية إنّما هو مقتنص من بين شفتيها اللتين ظلتا فلسطينيّتين رغم كل شيء .»[2]

---

(١) غسّان كنفاني . الآثار الكاملة ، الرّوايات ، مؤسسة الأبحاث العربيّة ، بيروت ، ١٩٩٩ ، ص ٢٩٧ .

(٢) غسّان كنفاني . الآثار الكاملة ، الرّوايات ، مؤسسة الأبحاث العربيّة ، بيروت ، ١٩٩٩ ، ص ٢٤٢ .

صحيح أن غسّان كان ذكيّاً في المقدّمة ، وسوّغ بـ«أكاد» لتدخّله في النّص لاحقاً ، وحضوره أحياناً على لسان أمّ سعدٍ . ولكننا نرى أن حضوره أحياناً كان سافراً ، أي بليغاً لا يتناسب مع شخصيّة أمّ سعدٍ ، ولا مع مستوى اللغة في الرّواية ، التي عمد غسّان كنفاني فيها إلى اعتماد اللغة البسيطة ، بل والعاميّة أحياناً .

«في رواية أمّ سعدٍ ، اللغة هي لغة الناس البسطاء ، وقد اعتمد غسّان فيها أسلوب تبسيط الفصحى ، حتى تكاد تصل إلى درجة العاميَّة ، حتى أنه استخدم الفاظاً محليَّة يصعب فهمها في الأقطار العربيَّة الأخرى»[١]

وبساطة اللغة في رواية «أمّ سعدٍ» لفت انتباه بعض من الدّارسين :

«أمّ سعدٍ ليست فكرة مجردة ، ولكنها امرأة حقيقية تطل علينا بلغة بسيطة ، وتعبيرٍ مباشر ، تشعر أمامها أنك لست أمام امرأة واحدة إنَّما الشعب الفلسطينيّ كلّه»[٢]

ولكنّ غسّان المختبئ في ثياب أمّ سعدٍ ، البليغ المتحدث

---

(1) Wild Stefan. Ghassan Kanafani, The Life Of a Palestinian, Otto, Harrassowitz, Weisbadeb, Germany, 1995, page 58.

(٢) شكري عيّاد ، البطل في الأدب والأساطير ، دار الموفه ، ط ٢ ، الناصرة ١٩٧٢ ، ، ص ٢٣٩ .

بلسانها ، لم يتستطع أن يغيب طويلاً ، فها هو يطل برأس بلاغته قائلاً كلاماً على لسان أمّ سعدٍ لم يكن لمن هم مثلها أن يقولوه . وحين رأى الجروح في كفتيها دار بينهما الحوار التالي :

قلت لها : لا عليك - إنّها جروح بسيطة . . . هذه؟ طبعاً ، ستُمحى ، ستمحوها الأيام . سيملؤها غبار التعب ، سيتراكم فوقها صدأ الأواني التي أغسلها ، وقذارات البلاط الذي أمسحه ، ورماد المنافض التي أنظفها ، وعكورة المياه التي أغسل بها . . . أجل يا ابن العم ، أجل . . . ستغرق هذه الجروح تحت سواقي التعب ، يخففها اللهاث ، وتغتسل طوال النهار بالعرق السَّاخن الذي أعجن فيها خبز أولادي . . . نعم يا ابن العم ، ستضع الأيام الذَّليلة فوقها قشرة سميكة ، وسيضحى من المستحيل على أيٍّ كان أن يراها ، ولكنني أعرف ، أنا التي أعرف ، أنها ستظلُّ تخزِني تحت تلك القشرة . أعرف!»[(١)]

يرى بعض الدّارسين ما يراه البحث أيضاً :

«كان أولى بالكاتب أن يجعل أمّ سعدٍ تعبّر عن هذه الأفكار بالتلميح كي يأتي الكلام منسجماً مع شخصيتها البسيطة المحدودة الثقافة كما فعل في صور سابقة»[(٢)]

---

(١) غسّان كنفاني . الآثار الكاملة ، الرّوايات ، مؤسسة الأبحاث العربيّة ، بيروت ، ١٩٩٩ ، ص ٢٩٧ .

(٢) نجمة خليل أحمد . النموذج الإنسانيّ في أدب غسّان كنفاني ، بيسان للنّشر والتوزيع والإعلام ، بيروت ، ١٩٩٩ ، ص ٤٦ .

بناءً على هذه الرؤية ذهبت الباحثة فيحاء عبدالهادي للتشكيك في واقعية أمّ سعدٍ فاعتبرتها شخصية روائية من صناعة غسّان أراد أن يقول من خلالها ما يريد .

«أمّ سعدٍ تشكلّ ضمير الراوي الذي يقف مقابله يؤلمه بحقائق فينساها حيناً ويتناساها حيناً آخر»[1]

غير أننا على إيماننا بواقعية أمّ سعدٍ ، وأن المقطع من الرواية موضوع الحديث ، من المستحيل أن يكون كلام أمّ سعدٍ بهذه الصياغة ، ولا يمنع أن تكون قد قالته بهذا المعنى . لذلك نرى أنّ هذا التّدخل من غسّان كنفاني في مُجريات القصّ مردُّه إلى السِّمة الغالبة على أسلوب غسان كنفاني .

«تزخر كتابات غسان بما يمكن تسميته خيالات واقعية من البطولات والمُثل والأخلاق»[2]

إنّ ظهور الكاتب في لحظة من لحظات الرواية بعد أن أصرّ على الاختباء في معظمها ، لا يقدح في واقعية في الشخصية القصصية ، ولا يُقلل من متانة بناء الرِّواية .

منذ متى كانت بلاغة الكاتب نقصاً في روايته؟ وهل يُلام

---

(١) فيحاء عبد الهادي . وعد الغد ، دار الكرمل للنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى ، عمّان ، ١٩٨٧ ، ص ٧٦ .

(٢) سامي سويدان . نقد القصة المقاومة عند غسان كنفاني ، مجلة العرب والفكر العلمي ، العدد الأول ، شتاء ١٩٨٨ ، ص ١١٧ .

الرِّوائي على حضوره في روايته ؟

من خلال تصوير غسّان كنفاني الواقعيّ لأم سعد العاملة ، نقَلنا غسَّان كنفاني من عالم الرجال الثُّوار إلى عالم النِّساء العاملات ، ورأيناه يثير قضية عمل المرأة في مرحلة مبكرة ، والموضوع مثارَ جدلٍ حتى اللحظة . ورأيناه بوضوح يصوّر لنا العمل الشاقّ ، وآثاره على أمّ سعدٍ ، ظاهرها وباطنها ، كفّيها المشقّقين كجذعٍ هرم ، وانكسار المارد تحت ضربات الشقاء ، رأيناه يعرف همّ النِّساء كما همَّ الرِّجال ، يكتب لهنّ وعنهنّ ، بقلم القريبِ منهنّ .

المبحث الثَّاني:
الحسُّ الإنسانيُّ في الأمِّ العاملة

يلمسُ الباحثُ في الرواية الفلسطينيـة اهتمـام الروائيين الفلسطينيين بصورة الأمّ . لقد قدّموها بصورةٍ ملائكيَّة ، تفيض حناناً ، تعمل داخل البيت وخارجه ، تحمل أعباء الزَّوج والأولاد . وهي ، قبل كلّ هذا ، على وعيٍ تام ، رغم بساطتها ، بقضيتها .

«لقد حرص الروائي الفلسطيني على أن يُقدّم الأمّ الفلسطينية في إطارٍ إنسانيّ ، وفنيّ بديع ، ومميز ، إذ قدّمها إنسانةً مكافحة ، متفائلة بالمستقبل ، محبة للحياة ، والأرض والعمل»[1]

غسَّان كنفاني واحد من أولئك الرُّواة ، و أمّ سعدٍ إحدى أولئك الأمّهات ، مع التأكيد على أن أمّ سعدٍ عايشت الكاتب في النَّص الحياتيّ ، قبل أن تعايشه في النص الحكائيّ .

اللافت في شخصيَّة أمّ سعدٍ ، أنها على الرّغم من فقرها

---

(١) حسّان رشاد الشّامي . المرأة في الرّواية الفلسطينيّة ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، ١٩٩٨ ، ص ٣ .

وعَوزِها ومعاندة الحياة لها ، كانت تملك إحساساً عالياً بالآخرين ، وحسّاً إنسانياً لم تستطع قسوة الأيّام تحطيمه فيها «أمّ سعد تتخطى ملامح البطل النّموذجيّ الذي يختزن صِفاتٍ شعبيَّة ، ولا يقتصر تفرد أمّ سعدٍ بملامحها الجسمانيّة بل يتعدّاه إلى بنائها الدّاخليّ»[١]

سنحاولُ في هذا المبحث أن نستخرج -من بين ثنايا الرِّواية- الملامح الإنسانيَّة في الأمّ العاملة كما تجلت في شخصيَّة أمّ سعد .

لما كانت أمّ سعدٍ تملك حسّاً إنسانيّاً تجاه كل الذين وضعتهم الحياة في طريقها ، كان من البديهي أن تحسَّ بأولئك الموجودين ضمن دائرة حياتِها الضَّيقة ، وأعني بهم زوجها أولادها . على الرّغم من سوء معاملة أبي سعدٍ لها ، وقلة تقديرِه للجهد الذي تقوم به داخل البيت في تدبير شؤون الأسرة ، وخارجه في مشاركته التنقيب عن لقمة العيش ، وأحياناً تقوم بهذه المهمة وحدها ، فيما يجلس هو في البيت عاطلاً عن العمل ، وعلى الرّغم من ذلك كانت دوماً تجد المسوّغات لسَخطه الدَّائم .

«الفقر يا ابن العم ، الفقر . . . الفقر يجعل الملاك شيطاناً ،

---

(١) نجمة خليل أحمد . النموذج الإنسانيّ في أدب غسّان كنفاني ، بيسان للنّشر والتوزيع والإعلام ، بيروت ، ١٩٩٩ ، ص ٥٣ .

والشَّيطان ملاكاً، ما كان بوسع أبو سعد أن يفعل غير أن يترك خلقه يطلع ويفشّه بالناس وبي وبخياله؟ كان أبو سعد مدعوساً بالفقر، ومدعوساً بالمُقاهرة، ومدعوساً بكرت الإعاشة، ومدعوساً تحت سقف الزينكو، ومدعوساً تحت بسطار الدولة . . . فماذا كان بوسعه أن يفعل؟»[١]

أما أمّ سعدٍ في مقابل ذلك فقد غاب عن قاموس حياتها مفردة الرَّاحة، وحضرتْ فيه مفردات العَمل والتَّعب والشّقاء.

«كان نهارها صحراء قاحلة من التَّعب المُضني، منذ أبكر الصُّبح وهي تعتصر الملابس والمماسح، تنظف الشبابيك، وتجلو الأرض، وتنفض السَّجاجيد، في بيوتِ الآخرين طبعاً، فبيتها في المخيم غرفة مشطورة من النصف بحائط التنك»[٢]

بلغ بها حسَّها الإنسانيّ أنَّها على شقائها وهمِّها لم تكن تبوح لأحدٍ بما تقاسيه، لأنها كانت تكره نظرات الشَّفقة في عيون الغرباء، وتكره أن تثقل على الأقرباء، فقررت أن تحمل همَّها وحدها، ولا تشارك أحبَّاءها فيه حرصاً على ألا تثقل كاهلهم.

---

(١) غسّان كنفاني. الآثار الكاملة، الرّوايات، مؤسسة الأبحاث العربيّة، بيروت، ١٩٩٩، ص ٣٣٥.

(٢) غسّان كنفاني. الآثار الكاملة، الرّوايات، مؤسسة الأبحاث العربيّة، بيروت، ١٩٩٩، ص ٢٩٤.

يصف الرّاوي هذه الحالة جيّداً فيقول :

«وأنا الذي أعرف أن أمّ سعدٍ صندوق مغلق على همه ، لا يبوح لأحد إذا ما ضجَّت داخله أصوات التعب والقلق والخوف من المجهول»[1]

بعد ذلك ، يبلغُ حسُّها الإنسانيّ ذروته في قصَّة المرأة الجنوبيَّة التي كانت تتقاضى سبعَ ليراتٍ لقاء تنظيفها للسلّم ، واحضروا أمّ سعدٍ مكانها لتتقاضى خمس ليرات ، فلما علمت أمّ سعدٍ بذلك أعادت العمل لصاحبته ، وتركت لها الأجر الذي لم تتقاضاه بعد وهي أحوج ما تكون إلى عمل وأجر .

لذلك نوافق من يقول عنها :

«إلى جانب الوعي السِّياسيّ الذي تتميز به أمّ سعدٍ نلاحظ وعياً آخر . إنَّه وعيٌ اجتماعيّ . فهي عاملة كادحة تفرح إذ تحظى بعملٍ إضافيّ يزيد من دخلها ، ولكن هذا لا يمنعها أن تحسَّ إحساس مثيلاتها من المشحرين ـعلى حدِّ تعبيرها- المرأة الأخرى التي أخذت مكانها . لهذا تتخلى عن عملها الذي أفرحها الحصول عليه ، لأنَّها أدركتْ ما يرمي إليهِ صاحب العَمارة وناطوره ، وهو ضرب الفئاتِ الفقيرة ، بعضُها بالبعضِ الآخر . كما عزّ عليها أن يتواطأ عليها واحد من أبناء

---

(١) غسّان كنفاني . الآثار الكاملة ، الرّوايات ، مؤسسة الأبحاث العربيّة ، بيروت ، ١٩٩٩ ، ص ٣٠٣ .

طبقتها المسحوقة مع ذلك الغني ، عِوضَ أن يقف إلى جانبها وجانب زميلتها العاملة الأخرى . هكذا دانتْ أمّ سعدٍ بعض فئات طبقتها الذين يعملون لمصلحة الطبقة الغنيَّة كالناطور مثلاً .»[١]

لفتَ هذا الموقف الإنسانيّ النّابع من شخصيّة أم سعد هذه العديد من الدَّارسين ، فها هي رضوى عاشور تُحدِّثنا «في قصَّة المرأة الجنوبيَّة ترسم لنا أمّ سعدٍ صبغة إيثارية ، متعاطفة مع مثيلاتها من الطبقة المسحوقة ، وهذا دليل على شعورها القوميّ بغيرها من العرب»[٢]

وها هو إدريس جرادات تستوقفه هذه الحادثة أيضا :

«كانت تعمل في تنظيف أدراج البنايات ثلاث مرَّات أسبوعيّاً ، مقابل خمس ليرات ، وكانت تعيل أبناءها ، وتربط أمّ سعدٍ مصيرها بمصير غيرها من المُشحّرين ، فهي كانت مستغلة مضطهدة ، واللبنانيَّة التي تعيش أوضاعها كانتْ كذلك ، وترسم لنا أمّ سعدٍ لوحة رائعة بأن ترفض أن تعمل مكان المرأة اللبنانيَّة ، وترفض المسَّ بمثيلتها مقابل بضع ليرات ، وترسم لنا

---

(١) نجمة خليل أحمد . النموذج الإنسانيّ في أدب غسّان كنفاني ، بيسان للنّشر والتوزيع والإعلام ، بيروت ، ١٩٩٩ ، ص ٤٧ .

(٢) رضوى عاشور . الطريق إلى الخيمة الأخرى ، دار الآداب ، طبعة أولى ، بيروت ، ١٩٧٧ ، ص ٣٦ .

أمّ سعدٍ صبغة إيثارية متعاطفة مع مثيلتها من الطبقة المسحوقة والفقيرة، وهذا دليل على شعورها القوميّ»[1]

ولأنّ الحادثة أخذتْ هذه الأهميّة في رسم ملامح أم سعد الإنسانيّة، نرى أنّ اقتباسها بشكل دقيق يزيد في ايضاح ما نذهب إليه:

«قالتْ لها المرأة:

- يعطيكِ العافيَّة.

- الله يعافيكي يختي، خير؟

وقالت المرأة:

- جئتُ إليكِ لأقول لك شيئاً، أنا التي كنتُ أنظِّف هذا الدَّرج ثلاث مرَّاتٍ في الجمعة، وقبل شهر وثلاثة أيَّام جاء الخواجا فقال لي مع السَّلامة... كم يعطونك؟

- خمس ليرات يختي.

- كانوا يعطونني سبع ليرات. أنا امرأة عندي أربعة أولاد، قالوا لي سبع ليرات كثير...

- وجعلوني أنا أقطع رزقك، الله يقطع رزقهم»[2]

---

(١) إدريس جرادات. سلسلة كي لا ننسى رقم ٤، مركز السنابل للدراسات والتراث الشعبي، فلسطين، الخليل، ١٩٩٨.

(٢) غسّان كنفاني. الآثار الكاملة، الرّوايات، مؤسسة الأبحاث العربيّة، بيروت، ١٩٩٩، ص ٣١٧.

- لو أن شخصاً آخر مكان أمّ سعدٍ، وفي مثل وضعها الاقتصادي المُتردي، وحاجتها إلى العمل، لأخبرَ المرأة الأخرى أن هذا العمل قد أصبح عمله الآن، ولم تكن لتُلام، إذ أنَّها لم تشترك في طرد المرأة من عملها، فقد عملتْ به دون أن تعرف من الذي كانَ قبلها. ولكنَّ أمّ سعدٍ بإحساسها بالآخرين، بالإنسانيَّة التي تجري فيها مجرى الدَّم في العروق، أحسَّت أنَّها شريك في قطع رزق المرأة، وشعرتْ بتأنيب ضميرٍ، وهي التي كانتْ غائبةً لحظة طرد المرأة من عملها.

ولكن إحساس أمّ سعدٍ بالذَّنب لم يكن ليزيله تفهم المرأة الجنوبيَّة لموقفها، فقد حاولتْ فعلاً أن تريح ضمير أمّ سعدٍ:

«وما ذنبك أنت؟ أنت مثلي وعندكِ أولاد، ولكنَّني قلت لنفسي وقد انقطعَ رزقي: آتي إليك، فلعلَّ المكان الذي كنتِ تعملينَ فيه قبل أن تأتي إلى هنا ما زالَ شاغرا، فتدلّيني عليه»[1]

ونزلت هذه الكلمات كالصَّاعقة على أمّ سعدٍ، وإذ بها تعيد للمرأة عملها، وتترك لها أجرة الأسبوعين التي لم تقبضها بعد. في مشهد إيثاري يندر أن نراه يتكرَّر كل يوم، فقير ينتصر

---

(١) غسّان كنفاني. الآثار الكاملة، الرّوايات، مؤسسة الأبحاث العربيّة، بيروت، ١٩٩٩، ص ٣١٧.

لفقير آخر على حساب لقمة عيشه التي يحتاجها ليكمل مسيرة فقره في هذه الحياة .

«يختي والله لم أكن أعرف ، ولم يقولوا لي . . . خذي اشطفي بقيَّة الدَّرج ، الله يقطع هالبناية وصحابها ، أنا اشتغلتُ هنا شَهرا وثلاثة أيام ، وأجرة الأسبوعين الأخيرين لم أقبضهما بعد . غدا صباحاً قولي للخواجا أن أمّ سعدٍ سامحتني بالأجرة»[1]

وتعيد أمّ سعدٍ للمرأة عمَلها ، وتنزل السّلم إلى أن تصل إلى مدخلِ البناية ، ثم تصيخ سمعها تنتظر أن تسمعَ صوت الماء تسكبه المرأة على الدَّرج ، هو الصّوت الوحيد الآن القادر على أن يريح ضميرها ، وحين سمعته تنفَّستْ بعمق كما لو أنَّها كانتْ قاب قوسين أو أدنى من الاختناق ، ثم اندفعت إلى الطريق :

«ودون أن تلتفتَ أخذت أمّ سعدٍ تنزل الدَّرج ، وظلّتْ لفترة طويلةٍ تسمع نشيج المرأة الواقفة على مسطبة درج الطَّابق الثّالث ، وحين وصلت إلى المدخل وقفتْ هنيهة تصيخ السَّمع حتى سمعت صوت الماء يتدفق من جديد . وعندها فقط

---

(١) غسّان كنفاني . الآثار الكاملة ، الرّوايات ، مؤسسة الأبحاث العربيّة ، بيروت ، ١٩٩٩ ، ص ٣١٨ .

تنفَّست بعمقٍ ثم وجدت نفسها تبكي وهي تخرج إلى الطريق»[1]

لم تنتهِ القصة هنا ، و«تتابع أحداث الرِّواية ويخرج غسَّان من الإطار الواقعي التقليدي الذي يدرس الأحداث من بدايتها لنهايتها ليلجأ إلى طريقة في التَّصوير والعرض تذكر باللقطات السِّينيمائيَّة»[2]

يرسم لنا المشهد الأخير ، مشهد يضجُّ بالحركة ويزفرُ بالأحاسيس ، فأمّ سعدٍ على عملها الإيثاريّ العَظيم ، لم تنسَ تلك الحادثة ، وظلّتْ كلّما تتذكر تلك القصَّة تكاد تبكي ، وتصاب بالارتجاف ، وتشمئزُّ من مشهد النَّاطور ابن الطبقة المسحوقة الذي نسي معاناة من هم في مثل منزلته الاجتماعيَّة ، وباعَ نفسه لصاحب البنايَّة ليوفر له ليرتين ، لم تكونا لتفقرها لو دفعهما ، ولم تكونا لتزيدا في غناه ، لو احتفظ بهما .

«كلَّما اتذكر تلك القصة يهتزُّ بدني كلَّه ، وأكاد أبكي . . . إنَّني أصاب بالارتجاف حين أرى ذلك النَّاطور يتعقبني من قرنة

---

(١) غسّان كنفاني . الآثار الكاملة ، الرّوايات ، مؤسسة الأبحاث العربيّة ، بيروت ، ١٩٩٩ ، ص ٣١٨ .

(٢) سالم جورج . المغامرة الروائية ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، ١٩٩٣ ، ص١٠٩ .

إلى أخرى ، يريدون ضربنا ببعضنا ، نحن المشحَّرتين ، كي يربحوا ليرتين ، تلك العمارة الكبيرة تسوى أكثر من ألف ليرة ، أكثر بكثير ، وهم لا يهمهم أن يدفعوا واحدة منا لتقطعَ رزق الأخرى ، وانظر ماذا يفعل ذلك النَّاطور! ذلك النَّاطور الكريه إنه يستجيب لهم ، ويظلُّ طول النَّهار يكرجُ على البسكليت ليوفِّر لهم ليرتين!»[1]

في الحياة أشخاص نادرون يرون أنَّ المشاكل العامَّة هي مُشكلتهم الشَّخصيَّة ، وأنَّ إيجاد الحل ومن ثم تنفيذه مسؤوليَّة ملقاة على عاتقهم ، لا يعرفون أن يأخذوا دور المتفرِّج ، بل هم المبادر دوماً ، و أمّ سعدٍ كانتْ واحدة من هؤلاء النَّادرين .

عندما قصفت الطَّائراتُ محيطَ مطار بيروت _حيث كانتْ تقطُن أمَّ سعد- خلّف القصفُ قطع حديدٍ في الشَّارع ، وحين تجمهر النَّاس ليتفرَّجوا ، أبتْ أمّ سعدٍ أنْ تقفَ في صُفوف المتفرِّجين ، بل طلبتْ من رفيقاتها تنظيفَ الشَّارع من الحدائد كي لا تصيب دواليب السيارات .

«ورفعت بين أصَابعها قطعة حديد ذات رؤوس مسنَّنة . قالتْ أمّ سعدٍ لرفيقاتها :

- هذه الحدائد تفرقع دواليب السيارات .

---

(١) غسّان كنفاني . الآثار الكاملة ، الرّوايات ، مؤسسة الأبحاث العربيّة ، بيروت ، ١٩٩٩ ، ص ٢٩٥ .

ودورتها بين أصابعها ثم قالتْ :

- يا صبايا ، لنلمَّها ونقذف بها إلى الرَّمل . . .»[1]

تلك هي أم سعد بإنسانيّتها العميقة ، وذاك هو غسَّان كنفاني يلتقط الحسَّ الإنسانيّ الرفيع من بين ثنايا هذه الشَّخصية الصَّلبة كما الصَّخر . واللين من تلكَ الأم الصَّبورة كما لا يطيقُ الصَّبر . وجدناه محيطاً بعالم النِّساء كما عالم الرَّجال ، لا يغرّه المشهد الخارجيّ ، ولا تنطلي عليه تلكَ القشرة الصَّلبة التي صنعتها أمّ سعدٍ حول نفسها وغلّفتْ بها هذا الكائن الرقيق لتواجه قسوة الحياة .

---

(١) غسّان كنفاني . الآثار الكاملة ، الرّوايات ، مؤسسة الأبحاث العربيّة ، بيروت ، ١٩٩٩ ، ص ٣١٩ .

المبحث الثَّالث:
الأمّ العاملة والحياة الزَّوجيَّة

لم يكنْ غسَّان كنفاني يعرف عن عالم الأمّهات إلا ما يُبدين ، كان قريباً منهنَّ قرب الظِّفر من اللحم! يعرفُ أسرارَ البيوت ، وعلاقة الزَّوجات بالأزواج ، وتفاصيلَ الحياة البيتيَّة للأمهات العاملات . فقد كانَ ـ كغيره من الكُتَّاب الاشتراكيين- ابن بيئته ، ينزلُ للكادحين ولا يصعد للبرجوازيين .

اللافت في مؤلفاته أن المساحة التي شغلتها الأمّهات في أدبه أكبر بكثير من تلك التي شغلها الآباء . حتى هو على المستوى الشّخصيّ كان شديد التَّعلق بأمّه ، وكتب عنها أكثر مما كتب عن أبيه ، وكان يحسبها مثله الأعلى في الحياة .

«أما مثلي الأعلى فهو أمي ، إنها امرأة شبه أميّة ، ولكن على مستوى خارق من الذكاء ، وقد علمتني دائما أن تقولَ شيئاً مباشراً ، وعلَّمتني أنَّ الإنسان الحقيقيّ هو كائنٌ أخلاقيّ لا وجود في حياته للتَّصنّع والادّعاء»(١)

(١) رسالة موجهة إلى صديق ، مخطوطة بيد غسان كنفاني ، بيروت ، بتاريخ ٩/١٠/١٩٦٧ .

وتنقل زوجته آني عنه تلك الحادثة ، المبكرة من طفولته ، يوم سقوط عكا ، كيف ذهب لأمه يوم ذاك وكأنها الملجأ الأخير :

«كنت غارقا في طفولتي يوم سقطت عكا ، رجعت مهزوما أشعر شعورا لا أستطيع تفسيره ، وكانت أمي تجلس بين النساء ، فاقتربت منها وكأنها الملجأ»[1]

وفي رواية أمّ سعدٍ رسم لنا غسّان كنفاني مشهداً مُتكاملاً لحياة بطلةِ قصَّته ، أخْبَرَنا كيف تكون الثَّورة جزءاً من تكوينِ الإنسان ، وحدَّثنا عن جرأة الثَّائرة التي لم يكنْ لها من يُدافع عنها ، وعن التَّضحيَةِ في سبيلِ المَبادئ ، ورافقَ أمَّ سعدٍ إلى عملها ، حملَ الماءَ والصَّابُون من سلالم البنايةِ إلى أروقةِ الرِّواية ، وصوّر ما خلّفه العملُ في هيئةِ أمِّ سعدٍ . والآن يحملنا إلى بيتِها ، يُدخلنا دائرة حياتِها الضَّيقة ، يكشفُ علاقة الزَّوج بالزَّوجة ، والأمّ بالأب ، وأمّ سعدٍ بأبي سعد .

صحيحٌ أنَّ أبا سعدٍ هو محطُّ الدِّراسة في هذا الفصل ، ولكنَّنا إذْ جعلناه حَجر الأساس فليتَّضِحَ ،على هذا الأساس ، البناء النَّفسيّ لأمّ سعدٍ ، ولِتَتَّضح جوانب حياتِها كاملِة ، في

---

(1) Anni Kanafani. Kanafani, Ghassan Kanafani, second printing published by the Palestine Research Center, Beirut, Lebanon, 1971.

الكُتيِّب غير مُرقَّم

البيتِ كما خارجه . إذاً ، وجدنا أنَّه من تمام البحث ، والحديث عن الأمّ ، أن نُخصِّصَ زاويةً للأب ، ومن ثمَّ نتحدث عن تصرفاته ، ونوضح ردَّة فعل الأمّ ، وكيفيَّة تعاطيها مع هذه التَّصرفات والسُّلوكيات .

«يستطيعُ دارسُ الرِّواية الفِلسطينيَّة أنْ يُميِّز نوعينِ من العلاقَة الزَّوجيَّة ، النَّوع الأوَّل يتَّسم بالمودَّة والرَّحمة والألفة والانسجام ، أمَّا النَّوع الثَّاني فيتَّسم بالقَلقِ والتَّنافر»(١)

ولقد كانت العلاقة الزَّوجيَّة بين أمِّ سعدٍ وأبي سعدٍ من النَّوع الثَّاني ، إذ تكشف أحداث الرِّواية عن علاقةٍ تتَّسم بالمشاحنة والتَّنافر .

صحيحٌ أنَّ أبا سَعدٍ كان غائباً عن أحداث الرِّواية عدا «البنادق في المخيَّم» وهو الفصل الأخيرُ من الرِّواية ، إلا أنَّ غسَّان قد أورد في هذا الفصل ما يكفي لفهم حدود العلاقة الزَّوجيَّة بينهما .

غيرَ أنَّ أبا سعدٍ لم يكنْ غائباً عن أكثر مشاهد الرِّواية فحسب ، بل كان غائباً عن أكثر مشاهد حياة أسرته أيضا ، فاتسمت شخصيَّته بالسلبيَّة ، والغضب الدَّائم ، في حين تحمَّلتْ أمُّ سعدٍ عنه أعباء الأسرة والعمل .

---

(١) مريم فريحات . الحس الإغترابيّ في روايات غسان كنفاني ، مجلة جامعة دمشق ، مجلد ٢٦ ، العدد الثالث ، دمشق ، ٢٠١٠ ، ص ٣٦ .

«يرى الباحث في الرواية الفلسطينية أن المسافة التي شغلتها العلاقة بين الأزواج، لم تكن كبيرة قياسا إلى المساحة التي شغلتها علاقة الأم بالأولاد، وقد يكون الزوج حاضرا غائبا في الوقت نفسه نتيجة لظروف اجتماعية تعانيها الأسرة وفي ظل ظروف سياسية معينة، فزوج أم سعد حاضر أشبه بالغائب»[١]

كان أبو سعدٍ، على عكس أمِّ سعدٍ وسعد، مُستسلماً للظُّروف القاسية الّتي وضعته فيها النَّكبة، لا يسعى ليُغيِّر واقعه، وكانتْ ردَّات فعله فظَّة عندما ينتقد أفراد الأسرة واقعهم السَّيء، فعندَما طافَ المخيَّمُ بماء المطر، ودخل الماءُ بيت أمِّ سعدٍ، وأبدى سعدٌ تذمُّره، وسخطه على هذا الواقع، نهره أبو سعدٍ، بأنَّ ما باليد حيلة، وأنَّه لا سبيل للتَّعامل مع المَطر، ولماذا يحسب أنَّ في السَّماء مزراباً يصُبُّ في بيتِهم وحدهم، وأنَّه عليهم أن يسدُّوا هذا المزراب.

«ومرَّة قالَ له أبوه: لماذا تقولُ ذلك؟ ماذا تريدنا أن نفعل؟ هل تعتقد أنَّه يوجد مزراب في السَّماء وأنَّ علينا أنْ نسدَّه؟»[٢]

---

(١) حسّان رشاد الشّامي. المرأة في الرّواية الفلسطينيّة، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٩٨، ص ٤٦.

(٢) غسّان كنفاني. الآثار الكاملة، الرّوايات، مؤسسة الأبحاث العربيّة، بيروت، ١٩٩٩، ص ٢٧٢.

كانَ أبو سعدٍ قليل العمل ، وحين يعمل فعمله شاقٌّ ، يعودُ متعباً ، ويطلب طعامَه بفظاظة ، لا يلتفِتُ أنَّ أمَّ سعدٍ التي كانتْ تعمل أيضاً طوالَ النَّهار . لاَ يُحادثها كما يفعلُ الأزواج ، ولا يُخففُ عنها ، وهي المُحتاجة للين في البيتِ بعد كلّ قسوة النَّهار خارجه ، فكان يأكل طعامه على عَجَلٍ ، ويكادُ ينامُ مع آخر لقمة .

«كانَ دائماً يأتي مُنهكا ، ويطلب طعامه بسؤالٍ فظٍّ ، ويكادُ ينام وهو يعلكُ لقمتَه الأخيرة»[١]

والفظَاظة كانتْ سِمةً في أبي سَعدٍ ، فعندما يعمل فظٌّ حينَ يعود ، وحينَ يتعطَّلُ عن العمل يصبح أكثر فظاظة ، يقضي نهاره في المقهى يشربُ الشَّاي ، ويلعبُ طاولة الزَّهر ، ويصرخ في كل النَّاس .

«حينَ كان يتعطَّل عن العَملِ يزدادُ فظاظة ، ويأخذُ في الذَّهابِ إلى القَهوة حيث يشرب شاياً ، ويلعبُ الطَّاولة ، وينهرُ على كل الناس»[٢]

وحينَ يعودُ أبو سعدٍ من المقهى لم يكنْ سُلوكه في البيت

---

(١) غسّان كنفاني . الآثار الكاملة ، الرّوايات ، مؤسسة الأبحاث العربيّة ، بيروت ، ١٩٩٩ ، ص ٣٣١ .

(٢) غسّان كنفاني . الآثار الكاملة ، الرّوايات ، مؤسسة الأبحاث العربيّة ، بيروت ، ١٩٩٩ ، ص ٣٣١ .

أفضل حالاً عمَّا هو في المقهى . شرسٌ هنا وهناك ، يغضب لأقلِّ سببٍ ، وأحياناً بلا سبب ، يصرخ في أمِّ سعد والأولاد ، بلا ذنب ارتكبوه ، ولا جريرة اقترفوها ، فقط هو الطَّبع الخَشن الذي لم يُحاول أبو سعدٍ أن يتطبَّع بغيره «وإذ يعودُ إلى البيتِ كانَ لا يُطاق»(١)

حتى النَّوم ذاك السُّلوك البشريّ المُتَّسم بالسَّكينة والطمأنينة كان أبو سعد فظّاً فيه ، ينام قبل أن يستحمَّ ويزيل عنه الأوساخ التي لحقت به جرَّاء عمله بالإسمنت والتُّراب ، ويشخر بصوت مرتفع .

«كان ينامُ واضعاً كفَّيه الكبيرتين الخَشنتين اللتين تملؤها آثار الاسمنت ، والتُّراب تحتَ رأسه ، ويأخذُ بالشَّخير عاليا»(٢)

وفي الصَّباح يستفيقُ كما نام ، فظّاً غليظاً ، يتشاجرُ مع كلِّ من في البيتِ ، وإنْ لم يجد من يتشاجر معه يتشاجر مع خياله ، وفي تلك اللَّحظات الصَّباحيَّة تأخذ أمُّ سعد تحضِّر أغراضها لتذهب لعملها الشَّاق ، وبدل أن تجد من أبي سعد نظرة حانية ، وكلمة رقيقة ، وهي التي اختارت أن تفني أنوثتها

---

(١) غسّان كنفاني . الآثار الكاملة ، الرّوايات ، مؤسسة الأبحاث العربيّة ، بيروت ، ١٩٩٩ ، ص ٣٣١ .

(٢) غسّان كنفاني . الآثار الكاملة ، الرّوايات ، مؤسسة الأبحاث العربيّة ، بيروت ، ١٩٩٩ ، ص ٣٣١ .

لتربِّي أولاده، وتشاركه أعباء الحياة، كانَ ينظر إليها بنظرات الغضب، وكأنها أذنبتْ ذنباً عظيما. وكانتْ أمُّ سعدٍ صابرة، تتصرف بأخلاقها الحسنة، لا تتذمر، ولا تجادله، ولًا تطلب حتى تفسيراً لهذه النظرات الحانقة.

«وفي الصَّباح يشاجر خياله، يترك أمَّ سعدٍ تحضِّر أشياءَها الفقيرة لتمضي إلى شغلها تحت سياط نظراتٍ حانقةٍ لا تُفسَّر»[1]

لم يكتفِ أبو سعدٍ بالفظاظة، وسوء الخلق، بل أضاف إليها رزِيَّة شرب الخمر، وهو الفقير الذي نادراً ما يجد عملاً، وهي التي تُنظِّف جُدران البناية في برد الشِّتاء، وتعطيه المال ثمناً لرغيفِ خبزٍ، فإذا به يُنفقه على زُجاجة خمر.

«وذات يوم شمّتْ أمُّ سعدٍ مع لُهاثِهِ رائحةَ الخَمرِ»[2]

إنّ الحديثُ عن الزَّوجة والزَّوج، يقودنا إلى الحديث عن الأولاد، اللافت في أسرة أمّ سعد أنَّها كانتْ قليلة العدد، ليس مُقارنة بالأسرة وقتذاك، إذ تميزت الأسرة الفلسطينيَّة مطلع السِّتينيَّات - كما حال الأسرة العربيَّة عموماً - بارتفاع

---

(١) غسّان كنفاني. الآثار الكاملة، الرّوايات، مؤسسة الأبحاث العربيّة، بيروت، ١٩٩٩، ص ٣٣١.

(٢) غسّان كنفاني. الآثار الكاملة، الرّوايات، مؤسسة الأبحاث العربيّة، بيروت، ١٩٩٩، ص ٣٣١.

عدد الأولاد . غير أنَّ أمَّ سعد لم تنجبْ سوى ولدين ، وكانَ فارق السِّنِّ بينَ الولدين كبيراً ، فحين كان سعدٌ على أعتابِ العشرين فدائيّاً يقطُن خيام الثُّوار ، كان سعيدٌ في السَّابعة من عمره يلتحق بمعسكر الأشبال .

إنَّ هذا السّلوك الإنجابيّ المُقتصد ، لا يوجد له تبرير في غياب الثَّقافة الجنسيَّة ، وترشيد الاسرة وقتذاك ، وحتى في وقتنا الرَّاهن لمن هم في مستوى أمِّ سعدٍ الثَّقافيِّ والاجتماعي .

غير أنَّ الدِّراسات الحديثة تحاول أن تجيب عن هذا التساؤل . إنَّه شيء له علاقة بأثر العمل على الأمِّ ، فالأمُّ مهيئة في الأساس لوظيفة بيولوجية طبيعيَّةٍ هي الإنجاب ، وانخراطها بكل حواسها في ميدان العمل ، وعلمها بلا وعيها أن مزيداً من الأولاد يعني تعطُّلاً عن العمل ، أو تقصيراً فيه ، وهي بحاجة للعمل أكثر من الأولاد ، فإن جسدها عمل على ضمور في وظيفة الأمومة لصَالح العمل .

«كنّا نظنُّ أنَّ انخفاض نسبة الولادات بين العاملات ، يرجع لحرص المرأة العاملة على التخفف من أعباء الحياة ، في الحمل والولادة والرَّضاعة ، تحت ضغط الحاجة إلى الاستقرار في العمل ، ولكن ظهر من الاحصائيَّات أنَّ هذا النَّقص يرجع إلى عقم استعصى علاجه ، ويرجع علماء الأحياء سبب ذلك إلى قانون طَبعيٍّ معروف ، وهو أن الوظيفة تُوجِدُ العضو ، وهذا يعني أن وظيفة الأمومة أوجدت خصائص مميزة للأنوثة ، ولا بد

لها أن تضمر تدريجيا لانصراف المرأة عن وظيفة الأمومة بسبب اندماجها في عالم الرِّجال»[1]

وأخيراً يُؤتي صبر أمّ سعد أُكله ، ها هو أبو سعدٍ يتغيَّر ، ويتحول بعد الفظاظة لِيناً ، ويُقلع عن شرب الخمر ، ويكفُّ عنه الذَّهاب للمقهى ، ويلتفت إلى الأسرة وإليها .

«فجأة تغيَّر كلّ شيء ، كفَّ أبو سعد عن الذَّهاب للقهوة ، وصار حديثه لأمٍّ سعد أكثر لُيونة ، بل أنَّه ، وذلك الصباح ، سألها إذا كانت ما تزال تتعب ، وابتسم طويلاً حين رمقته متسائلة عن السَّبب»[2]

اتضحتْ في هذا المبحثِ إحدى تصوّرات غسَّان كنفاني للأمّ ، فهو يرى صبرها على زوجها قوةً لا ضعفاً ، واحتماله حتى الرَّمقِ الأخير لا بُدَّ أن يُؤتي نتائجه مهما طال المطاف ، وها هو أبو سَعدٍ عيِّنة من الآباء الذين استطاع صبر الأمهات أن يقلبهم رأساً على عَقب .

---

(١) فؤاد عبد الكريم العبدالله . عمل ا لمرأة رؤية شرعية ، دار ابن كثير ، القاهرة ، ٢٠١١ .

(٢) غسّان كنفاني . الآثار الكاملة ، الرّوايات ، مؤسسة الأبحاث العربيّة ، بيروت ، ١٩٩٩ ، ص ٣٣١ .

خاتمة الفصل الثّاني

اتضح في هذا الفصل - كما في الفصل الأول - حضور غسّان كنفاني في عالم النِّساء داخل البيت وخارجه . رأيناه لا يهتم بالظّاهر على حساب الباطن ، ولا بالباطن على حساب الظاهر ، يُحدثنا عمّا يُشاهدُ ، وعمّا يُحسُّ . يُحدّثنا عن شقاء المرأة تحت وطأة العمل المضني ، وعن الآثار البليغة التي يُخلّفها العمل الشاق على جسدها . يُخبرنا أن العوز والفقر والحاجة لا تمنع الإنسان من تحقيق إنسانيته ، فأم سعد الفقيرة كانت أكثر انسانية من ذاك الغني ، وهو إن أعطى يكون قد أعطى جزءاً بسيطاً مما يملك ، ولكنها حين أعطتْ كانت قد أعطتْ قوتَ يومها . ولم يكتفِ غسّان بتصوير علاقة الأم بأولادها ، بل تعداه لعلاقة الأم بالأب ، وصوّر لنا علاقة مأزومة ، وردة فعل متعقلة من أم سعد تجاه كل هذا الاستهتار من أبي سعد .

كل هذا يثبت بما لا يدع مجالاً للشك بأن غسّان كنفاني لم يكن بعيداً عن عالم النّساء ، وخصوصا الأمهات منهن ، وأنه كان يرى ، ويحس ، ويحلل ، ثم يحيل مشاهداته ، وأحاسيسه ، وتحليلاته إلى أدب جدير بالقراءة .

الفصل الثالث:

تجليات الأمِّ العاطفيّة في شخصيّة أم سعد

مقدمة الفصل

المبحث الأول: حب تملك الأولاد في شخصيّة أم سعد

المبحث الثاني: طغيان الجانب الأمومي على الجانب الأنثويّ

المبحث الثالث: الصّداقة بين الأم والأولاد في بيت أم سعد

خاتمة الفصل

الفصل الثّالث:
تجلّيات الأمّ العاطفيّة
في شخصيّة أمّ سعد

مقدمة الفصل:

مع أوَّل طفلٍ تلده المرأة تُولد هي، تضع خطوتها الأولى في موكب الأمَّهات، تصبح إنساناً آخر، يخرجُ من قفص بشريته المجبول على الأنانيَّة وحبٍّ الذَّات، وتدخل عالم الملائكيَّة، حيث التَّضحية بلا مُقابل والعطاء دون انتظار الرَّد.

وعلى اختلاف الدَّارسين في ميداني علم النَّفس والاجتماع، في شرح كيفَ يقلب الإنجابُ كيان المرأة رأَساً على عقب، إلا أنَّهم اتفقوا أنَّ للأمَّهات عاطفة لا تشبهها عواطف النِّساء اللائي لم يُصبحن أمَّهات بعد. إنها تغيُّر في بناء المرأة النفسيّ.

«هو شُعور تختبره المرأة في لحظةٍ من لحظات العُمر، تكاد البشريَّة لا تُدرك سرَّه، إنَّها الأمُومة بكلٍّ ما فيها من تضحيةٍ وقيم تخطَّت حدَّ الطبيعة، كثُرت الأقاويلُ في قصائد الشُّعراء ورواياتِ الكُتَّاب التي حاولتْ أنْ تُلامس معاني حنان الأمّ.

إلا أنَّها اصطدمتْ دوماً بعدم القُدرة على مُجاراة هذا الشُّعور الإنسانيّ»[1]

وقبلَ أنْ نقرأ عن عاطفةِ الأمُومة في كتُب الدَّارسين خبرناها في كُتب الحياة . ارتوينا منها جميعاً ، وما أفلحَ في وصفِها إلا أولئك الأجدادُ الذين لم يكونوا يوما كاتبين حين قالوا : «الدنيا أم» .

لهذا وجدنا أنَّه من النَّقص أن نُفرد دراسةً عن الأمِّ دون أنْ نُخصص فصلاً لعاطفةِ الأمومة . سندرسُ في هذا الفصل تجليَّات الأمِّ العاطفيَّة في شخصيَّة أمّ سعد .

وقد قسَّمنا هذا الفصل إلى ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : حب تملك الأولاد في شخصيّة أم سعد

المبحث الثّاني : طغيان الجانب الأموميّ على الجانب الأنثويّ في شخصيّة أم سعد

المبحث الثالث : الصّداقة بين الأم والأولاد في شخصيّة أم سعد

---

(١) محمد جابر . الأم في زمن العولمة ، صحيفة الصباح ، الكويت ، ٢٠ آذار ٢٠١٣ .

المبحث الأول:
حب تملك الأولاد في شخصية أم سعد

غريزة حبِّ التَّملك موجودة في جميع البشر وإن بنِسَبٍ مُتفاوتة . فلكلٍّ منَّا أحلامه في امتلاك شيءٍ جميل ، بيت كبير ، سيارة فارهة ، ووظيفة أفضل . هذا يعني أنَّ غريزة حُبِّ التَّملك لها جانبٌ إيجابيّ إذ تدفعنا إلى العمل لتحقيقِ ما نحلمُ به ، ولها جانبٌ سلبيّ أيضاً حين تنتقل هذه الغريزة من حبِّ تملّك الأشياء إلى حبِّ تملّك الأشخاص ، الأمر الذي يصل ، في كثير من الأحيان ، إلى انتهاك حقوق الآخرين .

يخلِطُ البعض بينَ الأنانيَّة وحبّ التَّملك ، ولكنَّ الحبّ هو الحد الفاصل بينهما ، فالأنانيَّة قد تخلو من حب الأشياء ، بينما حبُّ التملك يكون - في الغالب - تجاه الأشياء والأشخاص الذين نحبهم .

أنكرَت الماركسيَّة غريزة حبِّ التَّملك عند الإنسان ، وعدّتها مُكتسبة وليستْ فِطرية ، لذلك انتزعَ ستالين من الفلاحين مواشيهم وأراضيهم ومزارعهم ، وحوَّلها إلى ملكية جماعيَّة ، تطبيقاً للشُّيوعيَّة التي تُنكر غريزةَ حُبَّ التَّملك .

«يُصِرُّ الشُّيوعيُّون أنَّ حبَّ التَّملك ليسَ نزعةً فِطريَّة ،

ويقولون أن المجتمع الأول حيث سادت الشُّيوعيَّة الأولى ، لم يكن هناك ملك خاص لأحد ، وإنَّما كان كلّ شيء ملكاً للجميع ، كانت تسود الجميع روح المحبة والإخاء والتعاون ، ولكن هذه الفترة الملائكيَّة لم تدمْ طويلاً إذ أدَّى اكتشافُ الزِّراعة إلى الخلاف على ملكيَّة الأراضي»[١]

أمّا فرويد فقد رأى أنَّ «الانسان كائن عدواني وشرس بطبعه ، ولديه حبّ التّملك والسَّيطرة على الآخرين»[٢]

وقد انقسمَ عُلماء الاجتماع ، حول هذا الأمر ، إلى فريقين ، فريقٌ يرى صوابَ النَّظريّة الماركسيّة بأنَّ حبّ التَّملك شيءٌ مُكتسب أوجده التَّجمع البَشريّ ، والقوانين التي وضعها النَّاس لتسيير أمور مجتمعاتهم ، وفريقٌ آخر رأى رأيَ فُرويد أنَّ حبّ التَّملك غريزة فِطريَّة تُولد مع الإنسان ، ويقضي حياته مُحاولاً اشباعها .

«ولمْ يحزمْ علماءُ الاجتماع أمرهم بشأنِ حبَّ التَّملك ، وانقسموا فريقين : الأوّلُ يرى أنَّه نزعة فطرية يُولد بها الإنسان

---

(١) محمد قطب . شبهات حول الاسلام ، دار الشروق ، الطبعة ٢١ ، القاهرة ، ١٩٩٤ ، ص ٨٥ .

(٢) سيغموند فرويد . التحليل النفسي للطفل ، ترجمة أحمد حليم ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٨٦ ، ص ٨٢ .

بغضِّ النَّظر عن الظُّروف المُحيطة به ، والفـريق الآخـر يرى أنَّه من أثر البيئة»[1]

مهـما يكن من أمرٍ ، فإنَّ حبّ التَّملك موجُود في البشـر ، سواء بالغريزة أو بالاكتساب - وإنْ كنَّا نميلُ إلى أنَّه شيءٌ فِطريّ - فإنَّنا سندرسُ هذه الظَّاهرة في شخصيَّة أمّ سعدٍ ذاكرين أنَّنا لا ندرسُ حبَّ امـتـلاكِ الأشـيـاءِ بل الأشـخـاصِ وتحـديداً الأولاد .

يُمكن للقارئ المتعمّق أن يلمس حب امتلاك الأولاد عند أم سعد ، ولكن حبّ التّملك هذا كانَ خفيّا ومتعقّلاً ، أي أنَّه لم يتطور ليُصبح حالةً مرضيَّة ، فقد استطاعتْ أمَّ سعد أنْ تتغلبَ على حالتها ، وقدَّمتْ ابنها في سبيلِ القضيَّة التي تُؤمن بها ، ولكنَّها ظلَّتْ تكتنزُ في لا وعيها أنَّ سعداً ليسَ شيئاً مُكملا للحياة ، بل هو ضرورة من ضروراتها ، كالمَّاء والهواء ، وليسَ غير سعد بإمكانه أنْ يُقنعها بجدوى الحياة . وهي في حواراتها تشير أحياناً إلى هذا الأمر .

ففي ذاكَ الصَّباح الذي فقدتْ فيه أمّ سعد شهيَّتها للحياةِ وليسَ للطَّعام فحسب ، فلمْ تتناولْ فُطورها بسبب غياب سعد في الجبهة

---

(١) محمد قطب . شبهات حول الاسلام ، دار الشروق ، الطبعة ٢١ ، القاهرة ، ١٩٩٤ ، ص ٨٦ .

«- لماذا لم تتناولْ فطوركَ؟

أنا لم أتناول فُطوري أيضاً، أنتظرُ شيئاً ما يفتحُ شهيَّتي ليسَ للأكلِ فحسب، ولكن للحياة أيضاً . . . أتُصدِّق؟ ليسَ ثمَّة من يستطيع أنْ يفعلَ ذلكَ إلا سعد»[1]

حتى عندما يذهبُ سعد إلى الجبهة، وقد أضحى مُقاتلا، تبقى أم سعد على يقين بأن هذا المقاتل ما زال ابنها الصَّغير الذي يحتاج رعايتَها

«أودُّ لو كانَ قريباً فأحمِلُ له كلَّ يومٍ طعامَه من صُنع يديّ»[2]

تُفكّر أمُّ سعد جديّاً بزيارة سعد في الجبهة، حتى أنَّها همَّت أن تقتطع من قوتها وقوت الأسرة لتوفِّر أجرة الطَّريق وتذهب إليه. فلم تكنْ - بلا وعيها - قادرة على التَّعايش مع فكرة أنَّ ابنها أصبحَ رجُلاً ولمْ يعدْ بحاجةٍ لرعايتها.

«أتعتقد أنَّه سينبسط لو ذهبتُ فزرته؟ أستطيعُ أنْ أوفِّر

---

(١) غسّان كنفاني. الآثار الكاملة، الرّوايات، مؤسسة الأبحاث العربيّة، بيروت، ١٩٩٩، ص ٢٥٢.

(٢) غسّان كنفاني. الآثار الكاملة، الرّوايات، مؤسسة الأبحاث العربيّة، بيروت، ١٩٩٩، ص ٢٦٤.

أجرةَ الطَّريق ، وأذهبُ يومينِ إلى هُناك»[1]

والأمر عندَها تخطَّى فكرةَ الزِّيارة العابرة لفكرة السَّكن مع الثَّوار في خيامهم في الجبهات ، ما دام ذلكَ يُبقيها قرب سعد . لقد كانتْ تُفكر أنْ تذهب إليهم وتطبخ لهم وتخدمهم ، وهي لا تريد في الحقيقة إلا أنّ تطبخ لسعد وتخدمه ، ولكن ابنَها الصَّغير في البيت ، وزوجها الطفل الكبير الذي كانتْ تحمل همَّه ، وهَمَّ الأسرة عنه ، كانا يُكبّلانها .

«أتدري؟ إنَّ الأطفالَ ذُل! لو لم يكنْ لديَّ هذان الطِّفلان للحقتُ به . لسكنتُ معه هُناك . خيام؟ خيمة عن خيمة بتفرق! لعشتُ معهم ، طبختُ لهم طعامَهم ، خدمتهم بعينيَّ ، ولكنَّ الأطفالَ ذُلّ»[2]

وكأنَّ غسَّان كنفاني قد لمسَ ، في تركيبةِ أمِّ سعدٍ النَّفسيَّة ، حبَّ امتلاكِها لابنها ، فيخبرها أنَّ ابنَها قد كبر ، ولم يعدْ يحتاج رعايتها ، ثمَّ إنَّه أصبحَ فدائيّاً الآنَ ، والذي يرعى قضيَّةً بأسرها ، لا شكَّ في أنّه قادر أنْ يرعى نفسَه . ليسَ من المَعقول أنْ يحمِلَ شابٌ همَّ شعبٍ بأسره ثم يكون عاجزاً عن حمل همِّه الشَّخصيّ .

---

(١) غسّان كنفاني . الآثار الكاملة ، الرّوايات ، مؤسسة الأبحاث العربيّة ، بيروت ، ١٩٩٩ ، ص ٢٦٤ .

(٢) غسّان كنفاني . الآثار الكاملة ، الرّوايات ، مؤسسة الأبحاث العربيّة ، بيروت ، ١٩٩٩ ، ص ٢٦٤ .

«لا ضَـرورة لأنْ تزُوريه هُناك ، دَعـيـهِ يتَـصَـرَّفُ وحـدَه ، إنَّ الرَّجل الـذي يَلتَـحقُ بالفِـدائيـيِّن لا يحـتـاجُ ، بعـدُ ، إلـى رعـاية أمِّه»[1]

كانَ غسَّان كنفاني ذكيّاً في بناء شخصيّاته الرِّوائيّة . يُجيد استخدامَها في السِّياق . يترك للقارئ بين السُّطور شيئاً ليقرأه ، وكـانَ يُولِي الجانـب النَّفسيّ اهتمـامـاً كـبيـراً وقـد «عني غسَّان كنفـاني عنايةً شـديدة ببناء شـخصيَّاته النَّفسيٍّ»[2] مع فارق بسيط أنَّ أمَّ سعـد شخصية حقيـقيـة توافق تركـيبـهـا خِلقيّاً وحَياتِيّاً مع ما كـانَ يصنعه غسَّان مع شَخصيَّاتِه الرِّوائيَّة . ولعلَّ هذا أحد أسباب تعلّق غسَّان كنفاني بأمِّ سَعد ، إذ وجدها كـما يُريد ، فـوفَّرتْ عليـهِ عَناء صِناعتِهـا على ورق . لم تُبدِ أمّ سـعـد سُروراً أنّ ابنها قد كبر حقاً ، بل قرأ في عينيها نظرات الخيبة ، فـهي لم تسـتوعب فكرة أنّه صار بالإمكان الاستغناء عنها ، أو بتعبير أدقّ صار بإمكان ابنها أن يتدبّر أموره دونها .

وها هو غسّان يُحدّثنا عن تلك النّظرات :

«وعميـقاً في عينيـهـا رأيتُ شيئاً يُشبه الخيبة : تلكَ اللحظة

---

(١) غسّان كنفاني . الآثار الكاملة ، الرّوايات ، مؤسسة الأبحاث العربيّة ، بيروت ، ١٩٩٩ ، ص ٢٦٥ .

(٢) حسين مناصرة . المرأة وعلاقتها بالآخر في الرواية الفلسطينية ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، الطبعة الأولى ، بيروت ، ١٩٩٨ ، ص٢٢ .

المُروّعة التي تشعر فيها أمّ ما أنّه صار بالوسع الاستغناء عنها»[١]

حتى بعد أن هزّ غسّان كنفاني أمّ سعد من الأعماق ، وبعدَ أن حاول أن يُفتّح عينيها على حقيقة تُصرّ أن لا تراها ، وهي أن سعداً لم يعدْ طِفلاً ، وأنَّ دَورها لم يعدْ في حياته محورياً وأساسياً كما كان يوم كان سعد غضاً طريّاً ، إلا أنّ أم سعد بقيتْ مُصرَّة على أنْ تلعبَ الدَّور ذاته ، فهي الأمّ الكبيرة المسؤولة عن رعايته ، والاهتمام به ، وتدبير شُؤونه ، حتى وإنْ كانَ مُحارباً في الجبهة ، فهو الصَّغيرُ مهما كبر ، والمُحتاج لها مهما استغنى .

وها هي تُحمّل غسَّان كنفاني وصَايا لقائدِ سعدٍ في الجبهة . تستحلفه بأمه أنْ يُحقق لسعدٍ ما يريد ، وأن لا يُغضبه ، لأنّ سعداً عندما لا يتحقق له ما يريد يُصاب بحزن كبير :

«أقول لك ، لتكن وصيّتك به إلى رئيسه أن لا يغضبه . قل له : أم سعد تستحلفك بأمك أن تحقق لسعد ما يريد . إنّه شاب طيّب وحين يريد شيئا لا يتحقق يُصاب بحزن كبير ، قل

---

(١) غسّان كنفاني . الآثار الكاملة ، الرّوايات ، مؤسسة الأبحاث العربيّة ، بيروت ، ١٩٩٩ ، ص ٢٦٥ .

له ، دخيلك ، أن يحقق له ما يريد .»[١]

لم تكن أم سعد قادرة على التَّصور أنَّ سعداً قادرٌ على تدبير أموره دونها ، فكأنّه ما زال في بطنها ، مربوط بحبلها السِّريّ ، عليها أنْ تعيشَ ليعيشَ ، هي حياته وموته ، وحين يبتعدُ سعد لا تُلقي أمه للمسافة بالاً ، فهي التي تدبّر شؤونه ، وتحميه حتى من الرَّصاص ، ترى دعاءها متراساً يحتمي سعد خلفه ، وواقي رصاص يُرد عنه قنص العدو ، فالرَّصاصة التي شطفت لحم ساعده لم تقتله ببركة دعائها !

«ولولا أن دعوتُ له لقتلته الرَّصاصة التي شطفت لحم ساعده»[٢]

وفي اللوحة الرّابعة من رواية أم سعد والتي أسماها غسّان كنفاني «في قلب الدرع» يخرج غسّان عن واقعيّة الرواية الاشتراكية نحو شيء من الخيال ، يشدُّ عضد ما رأيناه في حبّ تملك أم سعد لأولادها ، وخصوصا بكرها سعد .

يذهبُ سعد ومجموعة من رفاقه في مهمّة عسكرية خلف خطوط العدو ، وتحاصرهم دوريّة هناك ، فيختبئون أيّاماً بين

(١) غسّان كنفاني . الآثار الكاملة ، الرّوايات ، مؤسسة الأبحاث العربيّة ، بيروت ، ١٩٩٩ ، ص ٢٦٦ .

(٢) غسّان كنفاني . الآثار الكاملة ، الرّوايات ، مؤسسة الأبحاث العربيّة ، بيروت ، ١٩٩٩ ، ص ٢٨٧ .

الزرع ، وتمرُّ أمرأه عجوز هناك بالصُّدفة فيقول لهم سعد أن هذه أمَّه ، وأنَّها تلحقُ به دوما ، فيتقدم منها سعد ويناديها «يمة» ، ويخبرها بجوعهم فتطعمهم المرأة على مدى أيام . تأتي حاملة صرّة فيها طعام تُلقيها بجانب الطريق وتمضي كي لا تُلفت الأنظار ، إلى أن ينفكّ الحصار ، وتروي أم سعد لغسّان هذه الحادثة بنشوة المنتصر فالمسافات لم تُبعدها وهي التي تلحق به دوماً .

«إنّ مثل هذه الفانتازيا الإيجابيَّة لم تكنْ في الرِّواية لو أرادَ غسّان أن يكتبها على وتيرة الواقعيّة الاشتراكيَّة ، فهو كمبدع رغم التزامه بفكره ، إلا أنّه يبحث عن أساليب أدبيّة تجعل القارىء يتوقَّف عندها للتفكير ، فهو هنا يرفض تماماً التحليل العقليّ للحدث ، فظهور المرأة العجوز التي أنقذت سعداً ورفاقه من حصار دام ثلاثة أيّام ، يمثّل الخروج على النَّمطيَّة التي تتسم بها الواقعيّة الاشتراكيّة»[1]

وهذه الحادثة وإنْ كانت خروجا عن الواقعيّة ، تبقى حادثة يتيمة في أدب غسَّان كنفاني مردّها إلى أن غسَّان وإن كان يسير على النَّمطيَّة الاشتراكية الرّوائيّة ، إلا أنَّه كان يهتمُّ كثيراً

---

(١) يُمنى عيد . ممارسات في النّقد الأدبي ، دار الفارابي ، الطبعة الأولى ، بيروت ، ١٩٧٥ ، ص ١٢٥ .

بالإحساس الذي تثيره الكلمات في القارئ . لقد كان يبحثُ عن الفرادة في الشّعور .

«كان غسّان يُريد أن تبدو قصصه واقعيّة مئة بالمئة ، ولكنّها في الوقت ذاته تُعطي احساسا غير موجود .»[1]

يقودنا حب تملك الأولاد في شخصيّة أم سعد للحديث عن نزعة إيثاريّة عندها ، فعلى الرغم من حب التملك هذا ، إلا أنّها لم تبخل به على القضيّة التي تؤمن بعدالتها . لقد عرفتْ أن على الإنسان أن يدفعَ ما يحب ثمناً لما يؤمن به .

أخيراً ، لا يكتفي غسّان كنفاني بالمشهد الخارجيّ للأم ، بل يلجُ عالمها الداخليّ ويكشفُ بناءَها النَّفسيّ وتركيبتها الحسيّة . كيف تشعر تجاه أولادها ، وكيف تراهم عالمها الخاص ، وتحاول السَّيطرة على عالمهم ، بدافع الحبّ لا الأنانيّة . كيف تريد الاستئثار بهم لنفسها ، وترى في ذلك ممارسة أبلغ للأمومة لا خللا في ممارسة هذا الدّور .

---

(١) فضل النّقيب . هكذا تنتهي القصص هكذا تبدأ ، مؤسسة الأبحاث العربيّة ، الطبعة الأولى ، بيروت ، ١٩٨٣ ، ص ٣٧ .

المبحث الثّاني:
طُغيان الجانب الأموميّ على الجانب الأنثوي
في شخصية أم سعد

مما خبرناه بالمعايشة والملاحظة أن الفتيات الصّغيرات حين يلعبن فيما بينهن ، يتسابقن للعب دور الأمهات ، فالأنثى - على ما يبدو - تُولد لتكون أمّاً ، وينمو فيها هذا الشّعور مع تخطّيها مرحلة الطفولة نحو النضج . وإذا كان الذكور يصبحون آباءً في اللحظة التي تلد فيها زوجاتهم ، فإنّ الإناث أمّهات بالقوة قبل أن يُصبحن أمّهات بالفعل ، فالأبوّة بالتجربة والأمومة بالغريزة .

وصحيح أنَّ الأنثى تُولد بغريزة الأمومة ، وأنّها تسعى في رحلة العمر لإشباع هذه الغريزة ، فإنها - من قبل - مسكونة بغريزة أنْ تكون أنثى ، تلفتُ انتباه الرّجل بحسنها ، وتأسر لُبّه بجمالها ، «فالنّرجسيّة المتعلقة بحب المظهر ، والتي تنبع من قدرة المرأة على لفت الأنظار ، تُنقل من جيل إلى جيل»[(١)] وكثيراً ما تتصادم هاتان الغريزتان في سيرة الحياة ، غريزة أن

---

(١) اليسار حبيب . صحيفة الجمهوريّة ، بيروت ، ٢٧ آذار ٢٠١٢ .

تكون المرأة أمّا ، وغريزة أن تكون أنثى ، لما للولادة والإنجاب من أثر سلبيّ على نضارة المرأة وجمالها ، ولما تعانيه المرأة في فترة الحمل ، ثمّ آلام الوضع ، وبعد ذلك الاهتمام بالمولود الجديد ، ورعايته ليلاً ونهارا ، كلّ هذا على حساب أنوثتها .

تندمج بعض النِّساء في عالم الأمومة وينسينَ أنوثتهنّ ، في حين يحاول البعض الآخر أن يُوفّقن بين أمومتهنّ وأنوثتهنّ .

قد يلمسُ الباحث في الرّواية العربيّة عموما ، والفلسطينيَّة خصوصاً ، في حقبة السّتينات انغماس الأمّهات بأمومتهنّ على حساب الاهتمام بأنوثتهنّ . فالمرأة الشرقيّة ، كما تُصوّرها الأعمال الروائيّة ، تصل بعد الانجاب ، والانضمام إلى قافلة الأمّهات ، إلى حالة اشباع عاطفيّ تصرفهنّ عن أنفسهنّ ، وبالتالي عن أزواجهنّ .

لقد أصبح بإمكان المرأة ، في هذا الزمن ، أنْ تجمع بين أمومتها وأنوثتها . كثيرات هنّ الأمّهات اللائي يقمن اليوم بأدوارهنّ تجاه أولادهنّ ، وأزواجهنّ ، ويرعينَ أنفسهن . أما إذا تحدّثنا عن اختيار المرأة بين أمومتها وأنوثتها ، نُرجع ذلك لحقبة تاريخيّة محددة ، أو لبيئة اجتماعيّة وثقافيّة واقتصاديّة بعينها ، لم تنقرضْ تماماً ، بل هذا النموذج من الأمهات ما زال حتى اليوم تجبره الحياة على الاختيار ، وفي الغالب ينحاز لأمومته بفعل بناء المرأة النفسيّ أولاً ، وبفعل التربية والتقاليد الاجتماعيّة ثانياً .

وأمُّ سعدٍ واحدةً من أولئك النِّسوة الشَّرقيّات اللائي انغمسنَ تماماً في أمومتهنَّ لدرجة نسيان أنوثتهنّ . لقد تحولتْ من امرأة إلى كائن رعائيّ ، همّها في الحياة أن تهتمَّ بأولادها ، وتنبش سلالم البنايات عن رغيف خبز نظيف لهم ، وتنقّب في بيوت الآخرين عمّا يسد جوعهم ويكفيهم ذلّ السّؤال .

وسنرخي العنان لقلم غسّان ليسرد لنا بروز أمومة أمّ سعد وضمور أنوثتها ، إذ استحال لمن هو في مثل وضعها الاجتماعيّ والثقافيّ والاقتصاديّ أن يُوفّق بين الاثنين .

أخذتْ أمّ سعد تحدّث غسّاناً كيف شطفت الرّصاصة ذراع سعد ، ومرّت به مرور الكرام دون أن تتوغل فيه . شمّرت عن كمّها ، وكشفتْ ساعدها لتريه بالضبط أين مرّت الرّصاصة ، فإذا ساعدها أسمر قويّ ، صلب قاسٍ ، وهي مواصفات غير مقبولة في معيار الجمال والأنوثة ، فضلاً عن كونها صفات يُوصف بها الرّجال عموماً ، والأشدّاء خصوصاً .

«شمّرت عن كمّها وأرتني كيف شقّت الرّصاصة لحم السّاعد من الرّسغ إلى الكوع ، وفي ساعدها الأسمر القويّ الذي يُشبه لونه لون الأرض ، رأيت كيف يُمكن للأمهات أن يُنجبن المُقاتلين»(١)

---

(١) غسّان كنفاني . الآثار الكاملة ، الرّوايات ، مؤسسة الأبحاث العربيّة ، بيروت ، ١٩٩٩ ، ص ٢٧٨ .

كانَ ضَرْباً من ضُروب المستحيل أن تُحافظ أمّ سعد على أنوثتها ، فهي طيلة عشرين عاما تعمل في بيتها وبيوت الناس ، تنزع اللقمة من فِيها لتضَعها في فم أولادها ، وتسهر ليناموا ، وتغسل سلالم البناية في ليل كانون البارد لتشتري لهم غطاء يُشعرهم بالدفء . لقد اهترأ عمرها طوال عشرين سنة من الكد والشَّقاء ، كما يهترئ ثوب لبسه صاحبه لعشرين سنة .

«أنا مُتعبة يا ابن عمي ، اهترأ عمري في ذلك المخيّم ، كلَّ صباح أقولُ يا رب ، وكلّ مساءٍ أقول يا رب ، وها قدْ مرّت عشرونَ سنة»[1]

كانَ عمل أمّ سعد مضنياً ، والتّعب الذي تلاقيه جرّاء عملها نحّات تفنن في ترك آثاره على جسدها النّحيل . كفّاها مشققان كجذع هرم ، فيهما خطوط تُشبه وجه الأرض إذ يُحبس عنها الماء . إنّ يدي المرأة الطَّريتين دلالة على الأنوثة ، وإمارة من أمارات الرّقة ، التي تنازلت عنها أمّ سعد لتكون أمّا ، إذ كان من الصعب أن تجمع بين الأمومة والأنوثة .

«وعادت تدفع أمام وجهي راحتيها اللتين تشبهان جلد أرض يُعذّبها العطش»[2]

---

(١) غسّان كنفاني . الآثار الكاملة ، الرّوايات ، مؤسسة الأبحاث العربيّة ، بيروت ، ١٩٩٩ ، ص ٢٦٣ .

(٢) غسّان كنفاني . الآثار الكاملة ، الرّوايات ، مؤسسة الأبحاث العربيّة ، بيروت ، ١٩٩٩ ، ص ٢٩٣ .

وأمّ سعد نَقْلة في عالم الأمَّهات الكنفانيّات ، فالأمّهات في أدب غسّان ، قبل أم سعد ، كُنّ ظلا للرجل ، في حين أن أم سعد تُشكّل فهماً أعمق من غسّان لدور الأمّ في الأسرة والمجتمع .

«أمّهات غسّان كنّ في البداية طبع الأم المهادن وأم سعد هي انقلاب واستلام للرِّيادة»(١)

هذه الرّيادة لم تكن على مستوى النّظرية فحسب ، بل على مستوى التطبيق أيضا . إنّها رائدة في فكرها وعملها . قامت بدورها الذي وضعتها فيه الحياة ، وإن مُجبرة لا مُختارة ، على أكمل وجه . لقد كان ثمن القيام بهذا الدور هو أنوثتها .

الإناث يتزيّنّ بالذّهب ، فالذَّهبُ والحليّ والقلائد رفقة الحسناوات منذ فجر التَّاريخ ، ولما اختارتْ أمّ سعد ، مُكرهة ، أنْ تتنازلَ عن الأنوثة لممارسة الأمومة ، غيّرت زينتها بما يقتضيه موقعها الجديد ، فهي لا تحيط رقبتها بالذّهب ، ولا تُزيّن معصمها بالأساور ، وأذنيها بالأقراط ، بل حول عنقها خيط ينتهي برصاصة تتدلى على صدرها ، الأمر الذي أدهش المختار حين حضر إلى بيتها يتقصّى أخبار سعد .

---

(١) ابراهيم السعافين . تطوّر الرّواية العربية الحديثة في بلاد الشام ، دار الرّشيد ، الطبعة الاولى ، العراق ، ١٩٨٠ ، ص ١٣٦ .

«وابتسم الأفندي وأشار إلى صدرها وهو يقول :

- ما هذا العقد يا أم سعد ؟

كانت الحلية التي تركها سعد لها قد قفزت من تحت ردائها حين دسّت الصورة في صدرها ، وأخذت تهتز فوق ثوبها المُبرقش ، ذلك كان ما أبقاه لها سعد حين زارها آخر مرّة ، سلسلة من المعدن تنتهي برصاصة مدفع رشّاش ، مثقوبة قرب قاعدتها النُّحاسيّة ومفرغة من بارودها . لقد دفع الأمر الأفندي إلى القول :

- لقد غيّرتن حُليّكن هذه الأيام .»[١]

«المرأة التي تعيش في المخيّم لا تتزيَّن بالذهب ، لأنها لا تملكه . وهي في ذلكَ تفتخر وترمز إلى تلك الطلقة بحيث تتزيَّن بها لأنَّه رمز ثورتها ، وهذا دليل على دخول الأفكار المتقدمة الجديدة التي بدأت تدخل على الثَّورة .»[٢]

ولا شكّ في أنَّ تخلّي المرأة عن الزِّينة حين لا تملك ثمنها ، أو حين لا يتناسب مع دورها في الحياة ، وتختار زينة ملائمة لوضعها الجديد ، فيه شيء من الاختيار ، لا كلّه يعود

---

(١) غسّان كنفاني . الآثار الكاملة ، الرّوايات ، مؤسسة الأبحاث العربيّة ، بيروت ، ١٩٩٩ ، ص ٢٤٥ .

(٢) رضوى عاشور . الطريق إلى الخيمة الأخرى ، دار الآداب ، طبعة أولى ، بيروت ، ١٩٧٧ ، ص ٧٢ .

للجبر والظّرف . وقد يكون هذا الاختيار ناتجاً عن تقدّم في الوعي .

«رفضتْ أم سعد المفاهيم والعادات البالية التي تُكبّلها وتعيق سيرة تقدّمها ، فاستبدلت بالحجاب رصاصة ، ولا شكّ أن موقف أم سعد يكشف قناعة المرأة بأنّ القِوى الغيبيّة لم تُقدّم لها شيئاً ، وأنّه لن يحميها سوى الفِعل»[1]

لقد ورد في حديث غسّان عن المشهد الذي لاحظ فيه المختار الرّصاصة حول عنق أم سعد لفظة الثّوب المبرقش ، وقد يتبادر إلى القارئ لأول وهلة أنّه أحد مظاهر الزينة ، في حين أنّ الذي لديه معرفة بعادات المجتمع الفلسطينيّ ، يعرف أنّ العباءة المزركشة هو مظهر من مظاهر التراث ، وهي غالب لباس النِّسوة وقتذاك ، وليس مردّه إلى الزينة والتّجمل .

كانت ثياب أمٍّ سعد رثّة ، وشعرها مهمل لا يعرف الطريق إلى صالونات التَّجميل ، ولا أيدي المصفِّفات ، تسرّحه على عجل ، وتستره بغطاء ، وربما غطّته أحياناً دون أن تجد وقتاً لتسرّحه .

«وأنا في ملابسي الرّثة ، وشعري الذي طيّر ريح الطائرة

---

(١) حسّان رشاد الشّامي . المرأة في الرّواية الفلسطينيّة ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، ١٩٩٨ ، ص ٤٠ .

غطاءه ، ووجهي الملطخ بالرمل والقرف»[1]

حتى حين تغيّر أبو سعد وأصبح طبعه ليّناً ، وحديثه حلواً ، لم تلتفتْ أمُّ سعد إلى أنوثتها ، ولم يُلهها هذا الحنان الزّوجي المفاجئ عن أولادها . لقد اختارتْ أن تبقى أمّاً في تلك اللحظات الحميميّة التي تريدها الزّوجات . وحين وقف الزّوجان على سطح مشرف على الملعب الذي يتدرب فيه الأشبال ، يرقبان ولدهما سعيداً الصغير يتدرب مع أترابه ، وضع أبو سعد كفّه على كتف أم سعد بود ، كانت هي منصرفة كليّاً لابنها الذي أبدى شجاعة في ميدان التّدريب ، وتفوّق على «خصمه» المتدرّب أمامه .

«ودوّى تصفيق كالرعد حين تجنّب سعيد ضربة الحربة ، وانتزع البندقيّة بلمح البصر من بين يدي غريمه الطِّفل ، واستدار ثمّ رفعها بساعده الصغير عالياً ، وعندما وضعَ أبو سعد كفّه على كتف زوجته وأخذ يضغط بود غير متوقّع ، وتدفّقت الدموع في عيني أم سعد ، وهي منصرفة كليّاً إلى سعيد»[2]

لقد استطاع غسّان كنفاني أن يكشف لنا غسّان كنفاني

---

(١) غسّان كنفاني . الآثار الكاملة ، الرّوايات ، مؤسسة الأبحاث العربيّة ، بيروت ، ١٩٩٩ ، ص ٢٩٦ .

(٢) غسّان كنفاني . الآثار الكاملة ، الرّوايات ، مؤسسة الأبحاث العربيّة ، بيروت ، ١٩٩٩ ، ص ٣٣٣ .

عن فهم أعمق للأمومة ، فهمٌ يطال تركيب المرأة النفسيّ ، فإذا كانت الثّوريّة في الفصل الأول تُرى وتُشاهد في الظّاهر ، والعمل في الفصل الثّاني تفرضه المعايشة والمعرفة عن قرب بأم سعد ، فإنّ غسّان في هذا المبحث يكشف المستور ، وإن كان يعرض ما يُمكن معاينته بعين النّاظر ، فإنه يقرن هذه المشاهدة بفهم عميق خلف المشهد ، التقط اشاراته وكتب عنه ، وأطلق العنان لأقلام الدّارسين تغوص في ثنايا الرّواية بحثاً عنها .

المبحث الثالث:
الصّداقة بين الأمّ والأولاد
في بيت أمّ سعد

وردَ معنا، في الفصلينِ الأوَّلين، أنّ الباحث في الرّواية الفلسطينيّة يلمس أنّ مساحة العلاقة التي جمعت بين الأزواج، لم تكن كبيرة قياسا إلى المساحة التي شغلتها علاقة الأم بالأولاد، ربما لانشغال الآباء في طلب الرّزق، وانغماسهم بتأمين متطلّبات الحياة أولا، ولشيء يرجع لتركيبة الأمّ الشرقيّة، وبنائها النّفسيّ، فهي إذ تفطمهم عن ثديها، تتركهم مُعلّقين بقلبها، تُرضعهم منه حناناً، منذ أوّل شهيقٍ لهم في الحياة، إلى أخر زفير لهم أو لها. ونحن، إذ نوافق هذا الرأي، لا ننتقص من دور الأب. على العكس تماماً فما زلنا نرى الأولاد الأطبّاء في بيوت الآباء الأميين، والشّعراء والأدباء في بيوت الآباء الذين لم يفُكّوا يوما حرفاً.

أمّا المرأة لكي تتفرغ لممارسة أمومتها على أكمل وجه، تستند إلى كتف جدير بالثقة هو كتف الأب، وتعيش في ظلّ رجل شهم، ينحت الصّخر ويشقى في سبيل زوجته وأولاده،

إنّه فقط نوع من تقسيم الأدوار ، وإذ نشيد بدور الأمّ فلا ننتقص من دور الأب ، ولكننا نُسلّط الضّوء على ما وضعناه نصب أعيننا في الدّراسة .

نقرأ في صفحات الحياة - قبل صفحات الرّوايات - علاقة صداقة بين الأبناء والأمهات ، بل إننا نعيش هذا الواقع في حياتنا ، إنَّنا بحضرة الأمّهات لا نشعر بهذا الحاجز من الهيبة والوقار الذي نشعره به بحضرة الآباء ، وهذا عائد لتركيبة الأمّ الشرقيّة ، والأب الشرقيّ كذلك .

المقارنة بين الأم والأب في وظائف الحياة ، فيه ظلم للأب وظلم للأمّ كذلك ، فلا تُوصف الأمّ بالعالة إذا كان الأب هو المُنتج ، ولا يُوصف الأب بالقاسي إذا كانت الأمّ بفطرتها ، التي فطر الله عليها النّاس ، أقدر من الرّجل في ابداء عاطفتها وممارستها .

تتحقق قيمة المرأة في الحياة في كونها امرأة ، والرّجل كذلك ، إنّ هذا التمايز هو اكتمال للحياة ، وعجز المرأة على أن تكون رجلا هو إضافة للحياة ، وعجز الرّجل على أن يكون امرأة هو كذلك أيضا . وانطلاقاً من هذه الرؤية لا نوافق فرويد إذ قيّم المرأة مُنطلقاً من وظيفة الرجل ، وامكاناته ، وبنائه النَّفسيّ .

«اهتمامات النّساء الاجتماعية أضعف من اهتمامات الرّجل ، وإنّ قدراتهنّ على إعلاء رغباتهنّ أقلّ من الرّجال ،

ويبـدو أن الطّريق الشّـاق الـذي يقـود إلى الأنوثة يسـتنفـذ كل إمكانيّات المرأة»[1]

ليس من أهداف البحث دراسة ضعف المرأة في مجال من مجالات الحياة . كل ما يهمّنا من قول «فرويد» أنّه يؤكّد ، ما سقناه ، أنّ المرأة ليست انسانا مغايراً للرّجل في بنائه الجسديّ فقط ، بل في تركيبته النّفسيّة ، بل ونزيد أنّ قوّة المرأة كامنة في ضعفها ورقّتها .

الأمُّ في مجتمعنا أقرب إلى الأولاد من الأب عموماً . تجمعها بهم علاقة صداقة ليس من شأن البحث أن يبحث في أسبابها ، وظروف نشأتها . فنحن لا نُفسّر الظاهرة بل نُسلّط الضوء عليها .

وحين نتحدّث عن صداقة الأمّ والأولاد ، فلا ننفي وجود صداقة بين الأب والأولاد ، ولا ننتقص من أهمّيتها . لكننا نرى أنّ الأم مهيأة ، في الغالب ، أكثر من الأب لعلاقة صداقة مع الأبناء .

«الصّداقة تُعتبر خير وسيلة لنجاح العلاقة بين الآباء والأبناء ، كما أنّها مطلب أساسيّ للأبناء ، وتقوم الصّداقة على ثلاثة أعمدة رئيسيّة ، وهي : الحبّ والثّقة والاحترام ، فمعاملة

---

(١) سيغموند فرويد . التحليل النفسي للطفل ، ترجمة أحمد حليم ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٨٦ ، ص ٨٢ .

الطفل بالحبّ والثّقة يُعينه على مواجهة الحياة بالحبّ والقياديّة ، وليس بالانطواء والانقياديّة»[(١)]

بعد هذا التّقديم ، بما فيه من استطراد ، نعود إلى ميدان الدّرس في رواية أمّ سعد ، ونعرض للصداقة بين أم سعد وأولادها ، وخصوصا سعداً ، فسعيد كان طفلاً ، والفارق الزمنيّ بينه وبين سعد كبير . والطّفل يحتاج إلى الحنان والرّعاية أكثر من حاجته للصّداقة .

يذهب سعد إلى الجبهة ويقضى هناك مدة طويلة ، ويعود جريحا بسبب رصاصة شطفتْ ساعده ، وكانتْ أم سعد ، الأمّ الصّديقة ، تعدُّ الأيام يوماً يوماً ، لا على رزنامة من ورق معلّقة على جدران البيت ، بل رزنامة من شوق مُعلّقة على جدران القلب . وحين يسألها غسّان عن المدّة التي قضاها سعد بعيداً عن البيت ، عمّا إذا كان قد غاب سنة ، فتجيبه أم سعد ، بما يُثير الذّهول ، فقد كانت تحسب غيابه باللحظة!

«- وسألتها :

- لقد غاب سنة؟

- كلا ، تسعة شهور وأسبوعين ، جاء أمس»[(٢)]

---

(١)عبد الحميد هاشم . نحو أسرة معافاة ، دار المعارف ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، ٢٠٠٥ ، ص ٢٦ .

(٢) غسّان كنفاني . الآثار الكاملة ، الرّوايات ، مؤسسة الأبحاث العربيّة ، بيروت ، ١٩٩٩ ، ص ٢٧٧ .

وحين عاد سعد من الجبهة منهكا وجريحاً ، يسأل غسّان أمّ سعد إذا ما اشتاق إليها سعد ، فتخبره كيف حضنها ، بمشهد يوحي بالصّداقة ، والألفة بين الابن وأمّه ، ولكنَّ أمّ سعد ، لم ترتوِ من حضنة واحدة تنتهي بلحظة ، فتعاتبه ، وتسأله قُبلة .

«- أَشتاقَ لكِ كثيراً ؟

- من؟ سعد؟ يخزي العين . عبطني لحظة واحة وتركني ، فقلتُ له : ولو يا سعد؟ ألا تعبط أمّك وتبوسها بعد هذا الغياب»[1]

وفي مشهد الأمّ الثّانية ، التي وردتْ في فصل «في قلب الدّرع» ، حين يحاصر العدو سعداً ورفاقه لأيام ، وتقوم امرأة عجوز بإطعامهم طوال مدّة حصارهم ، عن طريق إلقائها صُرّة طعام على جانب الطّريق كي لا تلفت انتباه المُحاصِرين ، ويُصرُّ سعد على أنّ هذه المرأة هي أمّه ، وليس له من تعليل أمام استغراب رفاقه سوى أنّ أمّه صديقته وتلحق به دائما!

«وقال سعد : أنتم لا تعرفون أمي ، إنّها تلحق بي دائماً»[2]

وعندما حضر الأفندي إلى بيت أمّ سعد ليتقصّى أخبار

---

(١) غسّان كنفاني . الآثار الكاملة ، الرّوايات ، مؤسسة الأبحاث العربيّة ، بيروت ، ١٩٩٩ ، ص ٢٧٨ .

(٢) غسّان كنفاني . الآثار الكاملة ، الرّوايات ، مؤسسة الأبحاث العربيّة ، بيروت ، ١٩٩٩ ، ص ٢٨٢ .

سعد ، وكان وقتذاك يُحسب العمل الثوري جريمة يُعاقب عليها القانون ، قامتْ أمُّ سعد إلى صورة سعد ، وهو في بزّته العسكريّة ، ممسكاً ببندقيّته الحربيّة ، واخفتها في صدرها ، فأحسّتْ بالدّفء ينبعث في جسدها!

«وتحت وطأة شعور غامض قفزت إلى الجدار فانتزعت الصورة ودسّتها في صدرها ، وتحت ثوبها أحسّت بالدّفء ينبعث من صورة سعد»[1]

حتى سعيد ابنها الغضّ الطريّ ، الذي كان يتدرّب في الملعب مع الأشبال ، كانتْ أمّ سعد تقف على سقف مُشرف على الميدان ، كما لو كانت تُحصي حبّات العرق على جبينه ، أو لعلّها كانت تفعل ذلك فعلا .

«وقال لها أبو سعد : انظري . . . أترينه؟ إنّه سعيد . . . أترينه؟ راقبيه جيّداً . . . كأنّها لم تكن تراه! وكأنّها لم تكن معه ، في قلب تلك الحلقة ، تُحصي حبّات العرق المتدفّقة فوق جبهته السّمراء الصّغيرة!»[2]

بقي أن نُشير إلى تشابه لفت أنظار بعض الدارسين في

---

(١) غسّان كنفاني . الآثار الكاملة ، الرّوايات ، مؤسسة الأبحاث العربيّة ، بيروت ، ١٩٩٩ ، ص ٢٢٥ .

(٢) غسّان كنفاني . الآثار الكاملة ، الرّوايات ، مؤسسة الأبحاث العربيّة ، بيروت ، ١٩٩٩ ، ص ٣٣٣ .

رواية غسّان كنفاني «أم سعد» وبين رواية «الأم» للأديب الروسيّ الشّهير مكسيم غوركي .

وإنّنا إنْ كنا نقول بتأثّر غسّان كنفاني بمكسيم غوركي ، فإننا نرى أنَّ رواية «أمّ سعد» لم تكن تقليداً أعمى لراوية «الأم» لغوركي ، بل فيها تمايز ، حافظ بها غسّان على خصوصيّة المجتمع الذي يكتب عنه ، ويُعالج قضاياه .

«إنَّ تشابها واضحاً بين غسّان وغوركي يكمن في أشياء كثيرة ، منها تقاسم المأساة الموزّعة على الشعب الفلسطينيّ الذي شُرّد من أرضه ، وبين الشّعب الروسيّ الذي يُعاني على يد المستغلين من أبناء وطنه ، ويشترك الأديبان أن كليهما ناشطان سياسيّان ، وأنّهما لم يكتفيا بتفسير مظاهر الصّراع الاجتماعيّ والحضاريّ ، بل خاضا هذا الصّراع وشاركا في تصحيح مساره»(١)

وتتبنّى الباحثة والأديبة رضوى عاشور وجهة النّظر القائلة بتأثر غسّان كنفاني في رواية أم سعد برواية الأم لمكسيم غوركي مع بعض التّمايز .

«رواية أمّ سعد مستوحاة من «الأم» لغوركي ، أمُّ غوركي تذهب للحرب وأم سعد تعدُّ لها ، وعي أم غوركي من مقولات

---

(١) داود سليمان القرنة . مجلّة المعلم الطالب ، العددان ١/٢ ، ٢٠٠٦ ، صفحة ١٣١ .

ابنها السّياسيّة ، وأم سعد من ممارستها»[1]

وبالتأثر مع التّمايز قالت الباحثة فيحاء عبد الهادي

«لو قارنّا مقارنة عابرة بين رواية غسّان كنفاني أم سعد وبين رواية مكسيم غوركي الأم ، لبدا لنا الفرق واضحاً بين الرّوايتين ، وبين وجهتي النّظر إلى العالم . الأمّ عند غوركي شخصيّة حيّة ديالكتيّة حقاً ، إنّها تتطور مع أحداث الرّواية ، فهي ليست ثورة جاهزة منذ البدء كما هي عند أم سعد غسّان كنفاني»[2]

---

(١) رضوى عاشور . الطريق إلى الخيمة الأخرى ، دار الآداب ، طبعة أولى ، بيروت ، ١٩٧٧ ، ص ١٠٦ .

(٢) فيحاء عبد الهادي . وعد الغد ، دار الكرمل للنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى ، عمّان ، ١٩٨٧ ، ص ٩٢ .

خاتمة الفصل الثّالث

بكل الأحوال لقد رأينا غسّان كنفاني يدخل عالم الأمّ، يصف لنا بناءها النّفسيّ ومشاعرها، مع الزّوج والأولاد. كما أنّه بيّن لنا أنّه كان لصيقاً بعالم النّساء عموما، والأمّهات خصوصا، يعرف أكثر بكثير من المعرفة السّطحيّة التي قال بها بعض الدّارسين.

لقد ألحّ في هذا الفصل على فكرة تملّك الأم لأولادها، فهي تراهم شيئاً من ضرورات الحياة، لا يقلّون أهميّة عن الماء والهواء والطعام. ولكنّه لم ينسَ في المقابل أن يُذكّرنا أن حبّ التملك هذا لم يحل دون إرسال الولد إلى ساحة المعارك. لقد آمن غسّان دوما بفكرة تضحية الإنسان بما يحب في سبيل ما يؤمن.

كما أنّه عرضَ لنا للأم حين تكون مجبرة على الاختيار بين أمومتها وأنوثتها، فتختار أن تكون أماً. وعرضَ لنا للصداقة بين الأم وأولادها، تلك الحميميّة التي تُنادي بها التربية الحديثة، كانت إحدى رؤى غسّان في الأم، وكانت إحدى ممارسات أم سعد المرأة الأميّة التي لم تعرف الكتابة ولا القراءة.

الخاتمة:

رأينا لتوّنا كيف يدخل بنا غسّان كنفاني إلى عالم النِّساء ، يُحدثنا عن بنائهنّ النفسي ، وكيف يشعرن ، فلا يكتفي بوصفهنّ جسمانيا . وجدناه يعرف خبايا الأمهات ، ويصور باقتدار علاقة الأم بالأب تحت سقف الزوجية وعلاقة الأم بالأبناء .

في الفصل الأول درسنا مظاهر الجرأة والفدائية في شخصية الأم ، وعن الثورة عندما تكون جزءا منها تجري فيها مجرى الدم من العروق وأرانا كيف تضحي الأم بأولادها وهم أعز ما تملك في سبيل ما تؤمن به كما عرض لنا تعلق الأم بالأرض حتى لكأنها من ترابها وشجرها .

أما في الفصل الثاني ، فقد حملنا غسان كنفاني إلى عالم الأمهات العاملات ، وعرض لنا مشهدا متكاملا للأم العاملة ، بشقيه النفسي والجسماني ، فحدثنا عن ملامح المعاناة عند المرأة العاملة ولم ينسَ أن يتطرق للأحاسيس التي تجتاحها ، كما حدّثنا عن أثر عمل المرأة في العلاقة الزوجيّة .

أما في الفصل الثالث ، فيحدثنا غسان عن تجليات الأم العاطفية ، ويعرض لنا حال الأم حين تندفع بدافع الحب لتملك أولادها كما يعرض للصداقة للأم والأولاد ، ولا ينسى

الموازنة بين النفس والحسّ فيعرض لنا طغيان الجانب الأمومي على الجانب الأنثوي في شخصية أم سعد .

بناء على ما تقدم فإننا نرى أن غسان كنفاني لم يكن بعيدا عن عالم الأمهات ، كتب لهن وعنهن بقلم القريب منهن ، وكان لصيقا بحياتهن اليومية على عكس ما أشيع عنه .

قراءة سريعة في رواياته تؤكد هذه الحقيقة :

في روايات «برقوق النسيان» ، «ما تبقى لكم» ، «أم سعد» . . . البطولة المطلقة فيها للأم .

الرواية الوحيدة التي كانت فيها البطولة المطلقة للرجل هي «رجال في الشمس» .

بينما تقاسم الرجل والمرأة البطولة في ما تبقى من أعماله الروائية .

حين تكون البطولة المطلقة للمرأة في ما يقارب نصف روايات غسان كنفاني فمن المجحف القول أنه كان بعيدا عن عالم النساء ومناقشة قضاياهن .

بقي أن نشير إلى أنه ومن خلال قراءاتنا لأعمال غسان كنفاني الروائية ، ومن خلال بحثنا عن المراجع التي تفيد في هذه الدراسة ، لمسنا أن صورة الأب قليلة عند غسان قياسا بصورة الأم ، ونرى أن إفراد دراسة بموضوع حول الأب في أدب غسان كنفاني سيكون له أهمية كبيرة نحو خطوة لفهم أعمق لأدبه بشكل أشمل .

المصادر والمراجع العربيّة:

١ . أبو مطر ، أحمد . الرّواية في الأدب الفلسطينيّ ، المؤسسة العربيّة للدراسات والنّشر ، طبعة أولى ، بيروت ، ١٩٨٠ .
٢ . أيّوب ، نبيل . نصّ القارئ المُختلف ، مكتبة لبنان ناشرون ، بيروت ، ٢٠١١ .
٣ . جرادات ، ادريس . . سلسلة كي لا ننسى رقم ٤ ، مركز السنابل للدراسات والتراث الشعبي ، فلسطين ، الخليل ، ١٩٩٨ .
٤ . جورج ، سالم . المغامرة الروائية ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، ١٩٩٣ .
٥ . خليل ، ابراهيم . في القصّة والرّواية الفلسطينيّة ، دار ابن رشد للنشر والتوزيع ، طبعة أولى ، عمّان ، ١٩٨٤
٦ . خليل أحمد ، نجمة . النموذج الإنسانيّ في أدب غسّان كنفاني ، بيسان للنّشر والتوزيع والإعلام ، بيروت ، ١٩٩٩ .
٦ . دراج ، فيصل . البطل في التاريخ ، شؤون فلسطينيّة ، عدد ١٣ ، أيلول ، ١٩٧٢ .
٧ . دكروب ، محمد . الآداب ، العدد ٧ ، تموز ، ١٩٩٢ .
٨ . رشاد الشّامي ، حسّان . المرأة في الرّواية الفلسطينيّة ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، ١٩٩٨ .

٩ . زين الدين ، أمل . باسيل ، جوزيف . تطوّر الوعي في نماذج قصصيّة فلسطينيّة ,دار الحداثة ، الطبعة الأولى ، ص ٧٢ ، بيروت ، ١٩٨٠ .

١٠ . السّعافين ، ابراهيم . تطوّر الرّواية العربية الحديثة في بلاد الشام ، دار الرّشيد ، الطبعة الاولى ، العراق ، ١٩٨٠ .

١١ . سليم أبو شقرة ، سليم . تطوّر الوعي عند المرأة في روايات غسّان كنفاني ، الجامعة اللبنانيّة ، رسالة ماجستير ، ص ٧٩ ، بيروت ، ٢٠١٠ .

١٢ . سليمان القرنة ، داود . مجلّة المعلم الطالب ، العددان ٢/١ ، صفحة ١٣١ ، ٢٠٠٦ .

١٣ . سويدان ، سامي . نقد القصة المقاومة عند غسان كنفاني ، مجلة العرب والفكر العلمي ، العدد الأول ، ص ١١٧ ، شتاء ١٩٨٨ .

١٤ . عاشور ، رضوى . الطريق إلى الخيمة الأخرى ، دار الآداب ، طبعة أولى ، بيروت ، ١٩٧٧

١٥ . عبّاس ، احسان . فضل النّقيب ، الياس خوري . غسّان كنفاني : انساناً وأديباً ومناضلاً ، منشورات الاتحاد العام للكتّاب والصحافيين الفلسطينيين ، بيروت ، ١٩٧٤

١٦ . عبد الكريم العبد الله ، فؤاد . عمل ا لمرأة رؤية شرعية ، دار ابن كثير ، القاهرة ، ٢٠١١ .

١٧ . عبد المحسن ، بدر . الرّوائيّ والأرض ، دار المعارف ، الطبعة الأولى ، مصر ، ١٩٧٩ .
١٨ . عبد الهادي ، فيحاء . وعد الغد ، دار الكرمل للنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى ، عمّان ، ١٩٨٧ .
١٩ . عزيز ماضي ، شكري . انعكاس هزيمة حزيران على الرواية العربيّة ، المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٧٨ .
٢٠ . عيد ، يمنى . ممارسات في النّقد الأدبي ، دار الفارابي ، الطبعة الأولى ، بيروت ، ١٩٧٥ .
٢١ . عيّاد ، شكري . البطل في الأدب والأساطير ، دار الموفه ، ط ٢ ، الناصرة ١٩٧٢ .
٢٢ . فرويد ، سيغموند . التحليل النفسي للطفل ، ترجمة أحمد حليم ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٨٦ .
٢٣ . فريحات ، مريم . الحس الإغترابي في روايات غسان كنفاني ، مجلة جامعة دمشق ، مجلد ٢٦ ، العدد الثالث ، دمشق ، ٢٠١٠ .
٢٤ . قبّاني ، نزار . الأعمال النّثريّة الكاملة ، منشورات نزار قبّاني ، الجزء السّابع ، الطّبعة الثّانية ، بيروت ، لبنان ،١٩٩٩ .
٢٥ . قطب ، محمد . شبهات حول الاسلام ، دار الشروق ، الطبعة ٢١ ، القاهرة ، ١٩٩٤ .

٢٦ . كنفاني ، غسان . الآثار الكاملة ، الرّوايات ، مؤسسة الأبحاث العربيّة ، بيروت ، ١٩٩٩
٢٧ . كنفاني ، غسان . الآثار الكاملة ، الرّوايات ، مؤسسة الأبحاث العربيّة ، بيروت ، ١٩٩٩ .
٢٨ . كنفاني ، غسان . الآثار الكاملة ، القصص القصيرة ، مؤسسة الأبحاث العربيّة ، بيروت ، ١٩٩٩ .
٢٩ . المسيري ، عبد الوهّاب . الأيديولوجيّة الصهيونيّة ، سلسلة عالم المعرفة ، العدد ٦١ ، المجلس الوطنيّ للثقافة والفنون والآداب ، الكويت .
٣٠ . مناصرة ، حسين . المرأة وعلاقتها بالآخر في الرواية الفلسطينية ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، الطبعة الأولى ، بيروت ، ١٩٩٨ .
٣١ . هاشم ، عبد الحميد . نحو أسرة معافاة ، دار المعارف ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، ٢٠٠٩ .
٣٢ . النقيب ، فضل . هكذا تنتهي القصص هكذا تبدأ ، مؤسسة الأبحاث العربيّة ، الطبعة الأولى ، بيروت ، ١٩٨٣ .
٣٣ . وادي ، فاروق . ثلاث علامات في الرّواية الفلسطينيّة ، المؤسسة العربيّة للدراسة والنّشر ، الطبعة الأولى ، بيروت ، ١٩٨١ .

٣٤ . ياغي ، هاشم . القصّة القصيرة في فلسطين والأردن ، المؤسسة العربيّة للدّراسات والنّشر ، الطّبعة الثّانية ، بيروت ، ١٩٨١ .
٣٥ . يونغ ، يونغ . علم النّفس التحليليّ ، ترجمة محمود الرّبيعيّ ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٨٤ .
٣٦ . اليوسف ، سامي . رعشة المأساة ، دار منارات ، الطبعة الاولى ، عمّان ، الأردن ،١٩٨٥

الدوريّات :

١- حبيب ، اليسار . صحيفة الجمهوريّة ، بيروت ، ٢٧ آذار ٢٠١٢ .
٢- جابر ، محمّد . الأم في زمن العولمة ، صحيفة الصباح ، الكويت ، ٢٠ آذار ٢٠١٣ .
٣- كنفاني ، غسّان . مجلّة الهدف ، العدد ١٢٦٥ ، الأحد ٣١ آب ١٩٦٧ .
٤- نصر الله ، اميلي . السّفير ، العدد ٨١ ، ١٩٧٤

المصادر والمراجع الأجنبيّة :

1. Hajjar, George. Kanafani, Symbol of Palestine, published by George Hajjar, Bekaa, Lebanon, 1974.
2. Harry, Levin. The Gates of Horn, Oxford University Press, 1963.

3. Kanafani,Anni. Kanafani, Ghassan Kanafani, second printing published by the Palestine Research Center, Beirut, Lebanon, 1971.

4. Siddiq, Mohammad. . Man is a case, published by the Palestinian Research Center, second print, Beirut, 1973.

5. Stefan,Wild. Ghassan Kanafani, The Life Of a Palestinian, Otto, Harrassowitz, Weisbadeb, Germany, 1995.

الفهرست



درَجَ الباحثون والدّارسون في أدب غسّان كنفاني على أعتباره أديباً سياسياً، اكتسب قيمته من القضيّة التي يُمثلها ،والشائع أنّ أدب غسان كنفانيّ هو أدب ذكوريّ بامتياز ، فغسان كنفاني عا ش لقضية ومات لأجلها ، تلك القضية أخذته من كل شيء وهو القائل "خلقت أكتاف الرجال لحمل البنادق " غيّر أن هذه الدراسة هي محاولة لأنصاف غسّان وتأكيد أنّه كتب أدبا طال كل مناح الحياة ، فوجدناه يعرف النسّاء كما يعرف الرجال ولا يكتفي بما تظهره له العين بل يلج إلى تركيبة المرأة النفسيّة والفكريّة

أدهم شرقاوي

قس بن ساعدة



الغلاف / العنود الحربي .

